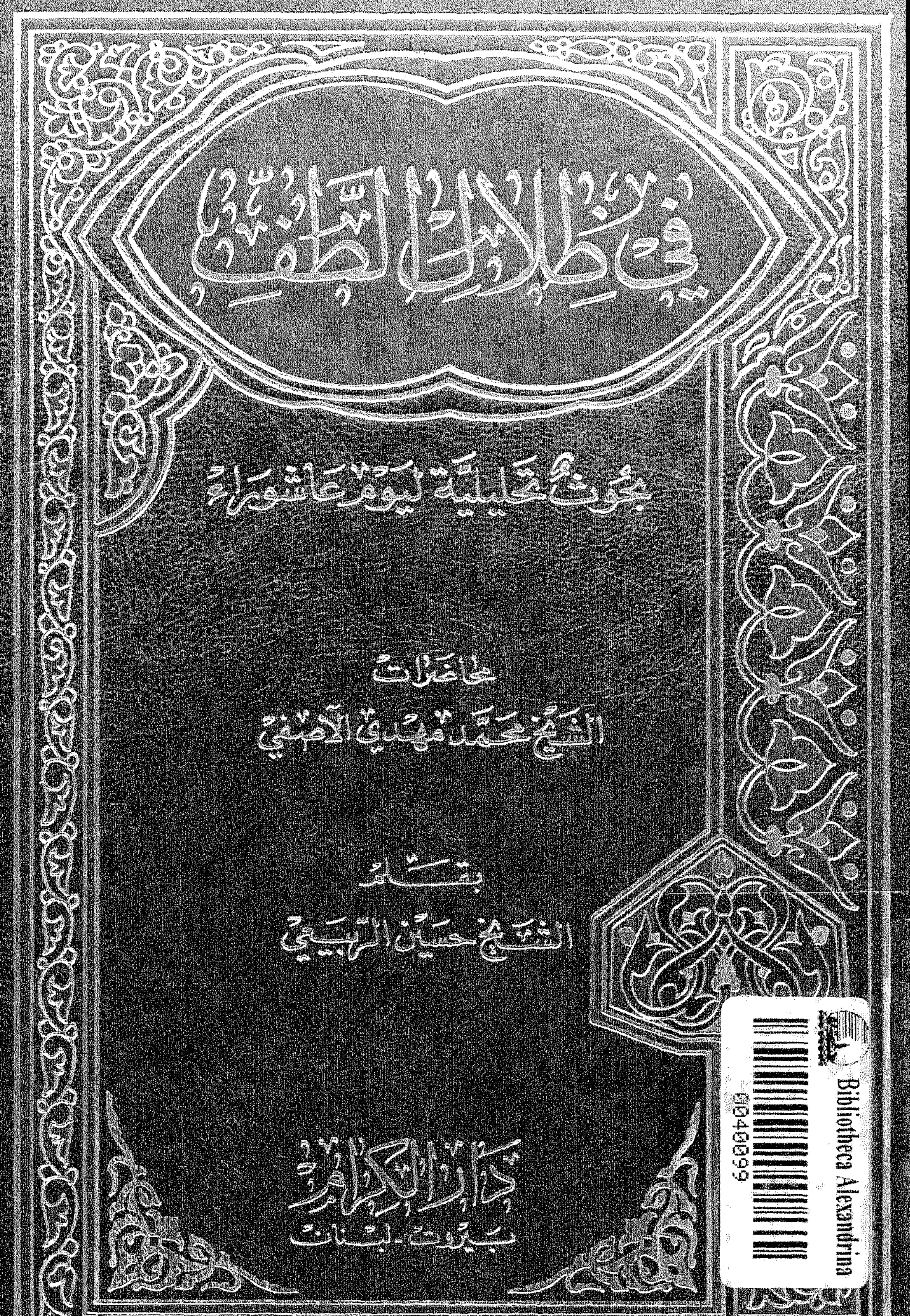
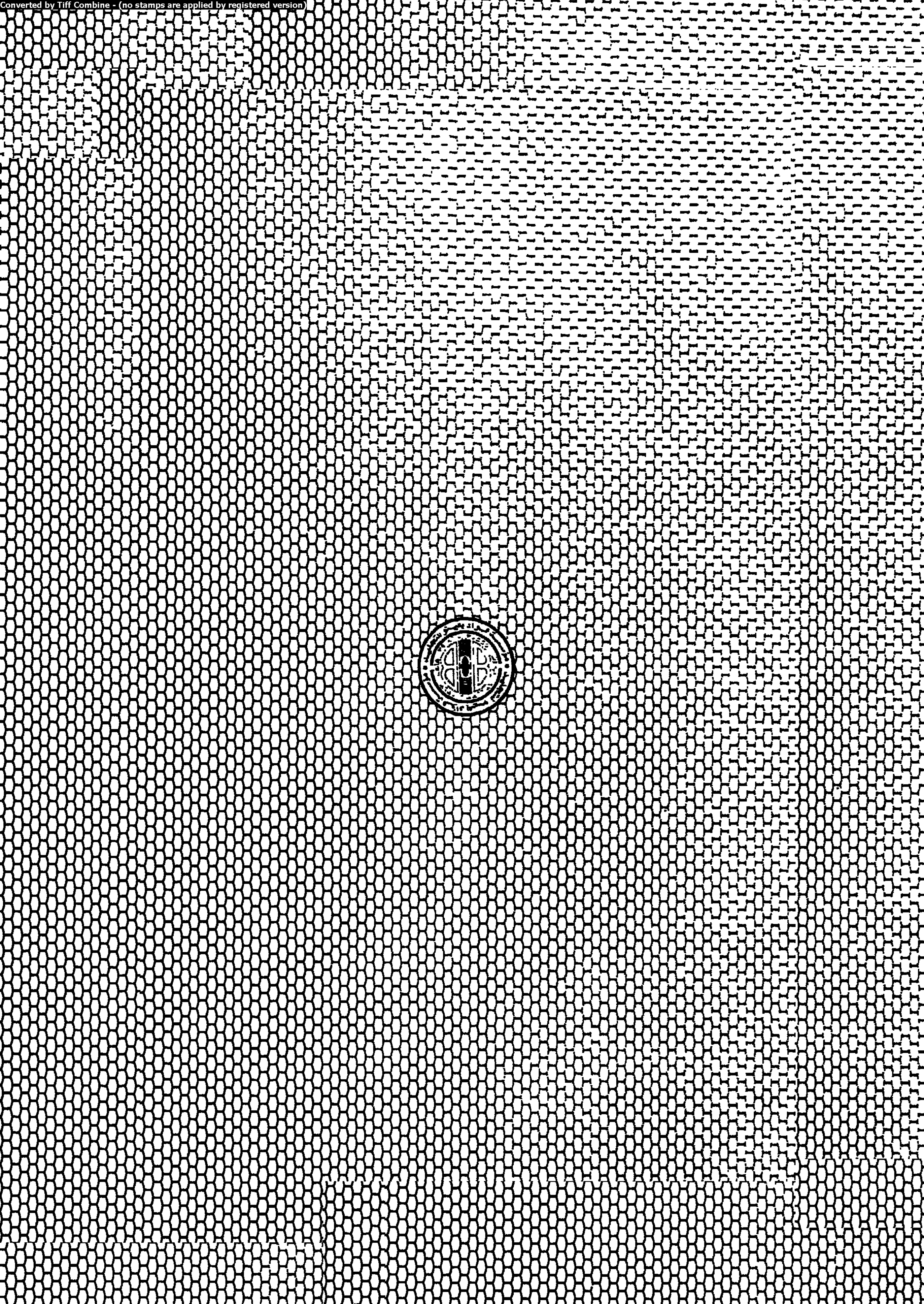
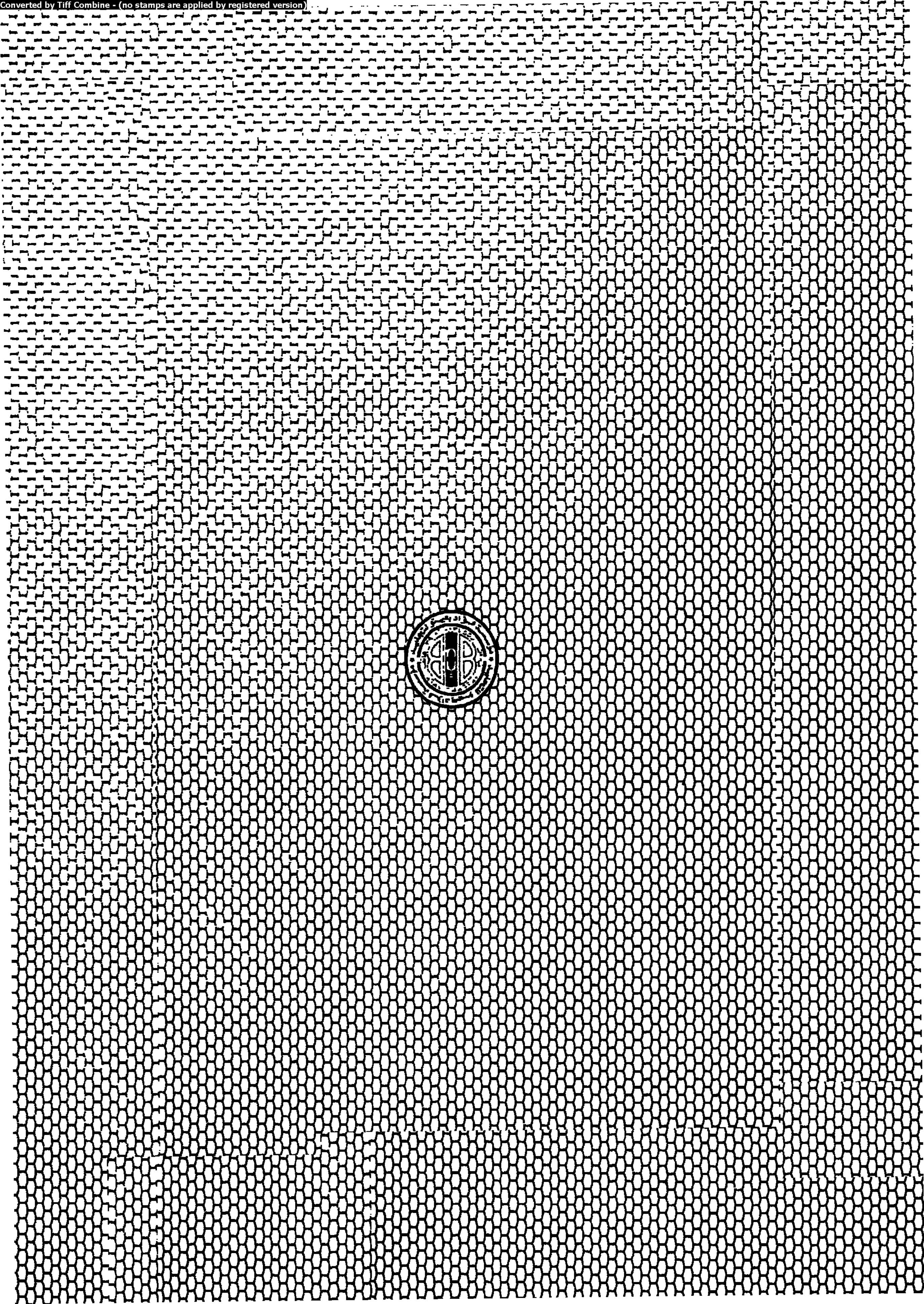
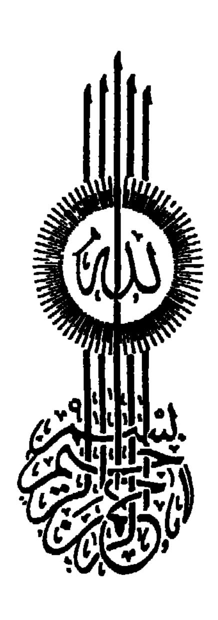

في ظلال الطف
بحوث تحليلية ليوم عاشوراء
محاضرات
الشيخ محمد مهدي الآصفي
بقلم
الشيخ حسين الزهيري
دار الكرام
بيروت - لبنان







محاضرات
الأستاذ الشيخ محمد مهدي الآصفي



محاضرات
الأستاذ الشيخ محمّد مهدي الآصفي

في ظلال الطّف
بُحوثٌ تَحليلية لِيومِ عاشوراء

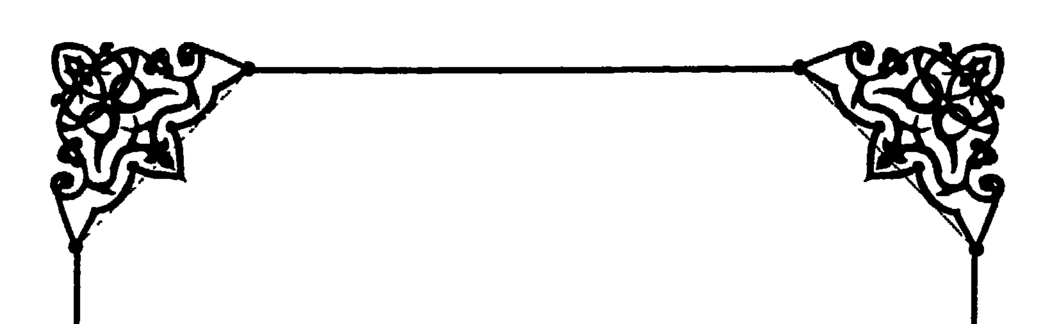
بقلم
الشّيخ حُسَيْن الرّبَيعي

دار الكرام
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٦ هجرية - ٩٥-٩٦ ميلادية





الإهداء

إلى الذي قال:

«كل ما لدينا من عاشوراء»

إلى الذي قالها وهو يتطلع إلى الأفق

الإسلامي في كربلاء...

إلى الذي قالها وهو يستلهم روح الثورة ومسيرتها...

إلى الذي قالها وهو يؤمن بأنّ

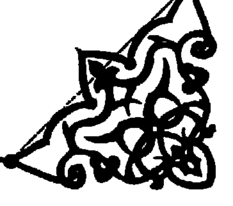
النظرية يجب أن تنطلق مع

التطبيق...

روح الله الموسّوي الخميني

«قدس»







بسم الله الرحمن الرحيم

المنبر الحسيني مدرسة للجماهير

في احداث يوم عاشوراء مادة غزيرة للتفكير والتثقيف والتغيير. هذه المادة تتضمن القيّم المؤثرة والفاعلة في حياة الانسان، كما تتضمن سنن الله في الصراع بين الحق والباطل، والتوحيد والشرك وما تمخض عن هذا الصراع من استقرار الحق وزهوق الباطل، وما يكتنف هذا الصراع من اذى وعناء وابتلاء بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات.

وما تؤدي اليه هذه المواجهة الحاسمة بين المعسكرين من آلام وقروح كما يقول القرآن لكل من الجهتين على نحو سواء. الا انها لمعسكر التوحيد والايمان تمحيص، ولمعسكر الشرك والنفاق محق وهلاك.. ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ آل عمران/ ١٤١.

وتتضمن هذه المادة الكشف عن واقع كل من المعسكرين فالحياة اليومية تسدل الستار على كثير من الحقائق في كل من المعسكرين.

واحداث يوم عاشوراء ترفع هذا الشعار وتظهر كلا من هذين المعسكرين على حقيقته، فتفضح ما يخفيه معسكر النفاق من الزيف والباطل والهوى والاستئثار وحب الذات والاستغراق في شهوات الدنيا والتهالك على حطامها. وتسفر عما يستبطنه معسكر التوحيد من القيم والفضائل والاخلاق الكريمة والتسامي عن مغريات الدنيا. ونكران الذات والترفع عنها والاقبال على الله تعالى....

ويوم عاشوراء يكشف اولئك ويسقط القناع عن وجوه المنافقين. ويسفر عن وجوه هؤلاء ويبرز القيم التي يتضمنها تاريخ هذه الامة المؤمنة من اخلاق الانبياء والصديقين والشهداء والصالحيين الراكعين الساجدين من عباد الله الصالحين.

وفي يوم عاشوراء. ومن الاحداث العظيمة التي تضمنها هذا اليوم من سنة ٦١ هجرية يستطيع المتأمل أن يستوحي هذه الأفكار والمفاهيم والسنن والقيم من دون تكلف ولا استطراد إذا احسنّا توظيف التحليل القرآني العلمي في فهم التاريخ والافادة من حركة التاريخ.

وإذا استعرضنا يوم عاشوراء والمواجهة التي تمّت بين الحسين (ع) وصحبه من جانب ويزيد بن معاوية وجنده من جانب آخر على الطريقة القرآنية في التحليل والاستنتاج وكما حلل القرآن أحداث المواجهة بين موسى وفرعون. وبين ابراهيم ونمرود.

* * *

ذلك ان الصراع بين الحق والباطل. وبين حزب الله وحزب الشيطان هو العامل الأكثر تأثيراً في حركة التاريخ. والتاريخ هو هذا الصراع القائم بين معسكر التوحيد والشرك.

وهذا الصراع كشاف، يكشف اهم خصائص حركة التاريخ، والسنن الالهية التي تجري في مساحة التاريخ، ويكشف من خبايا نفس الانسان واعماقه العميقة ما لا يكاد ينكشف لاحد الا في جو هذا الصراع.

ففي هذا الصراع ينشكف كل من المعسكرين على حقيقته وواقعه من دون ستار ولا قناع. فتبرز في جو الصراع حالات (الشحُ) و (الخوف) و (الهلع) و (الحرص) و (الاستئثار) في حياة المنافقين بصوره مكشوفة، ويسقط عنهم ما كانوا يسترون به سوءاتهم ويطلع الناس على عوراتهم.

تأملوا في هذه الآيات المباركات من سورة الأحزاب ١٨ ـ ١٩.

﴿قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا، ولا يأتون البأس الا قليلا أشحة عليكم، فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينُهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد اشحة على الخير اولئك لم يؤمنوا فأحبط الله اعمالهم، وكان ذلك على الله يسيرا﴾.

وكما يفضح الصراع المنافقين وأولياء الشيطان ويكشفهم يطلع الناس على حقيقتهم كذلك يجلى الصراع جوهر الايمان والتوحيد في نفوس المؤمنين. ويبرز ما تخفيه أنفسهم من الثقة بالله تعالى والاطمئنان. والقوة واليقين والعزم والاستقامة.

تأملوا في نفس السياق من آيات سورة الاحزاب المباركة.

﴿ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم الا ايماناً وتسليماً. من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا. ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء او يتوب عليهم﴾ الاحزاب ٢٢ ـ ٢٤.

إن الصراع وساعات العسر والشدة، كشاف يكشف ما تخفيه ايام العافية واليسر من سراء النفوس واعماقها ويبرزها على السطح.

وليس شيء كالصراع بين الحق والباطل يكشف خصائص ومميزات كل من المعسكرين وما يخفيه في اعماق نفوسهم.

وليس شيء كالصراع يكشف سنن الله تعالى في حركة التاريخ.

ويوم عاشوراء حافل بكل ذلك. حافل بالقيم وحافل بسنن الصراع، وحافل بمعاناة الصراع وعاقبة الصراع. بين الحق والباطل.

ونحن نجد في يوم عاشوراء مادة غزيرة للتأمل والتكفير والدرس والتثقيف (والثورة والتغيير).

وهذه الثقافة التي نجنيها من عاشوراء ثقافة لها عمق بحياة الناس، وهي ليست ثقافة نظرية بعيدة عن واقع حياة الناس.

إن كل واحد منا يشعر أن عاشوراء جزء من كيانه وعمقه التاريخي وجزءٌ من حاضره وواقعه المعاصر الذي يعيشه في الصراع بين حزب الله وحزب الشيطان والذي يبرز على وسائل الاعلام وفي ساحات المواجهة والصراع بصور واشكال مختلفة ولعل ذلك بعض اسرار جاذبية عاشوراء لجماهيرنا.

وهذه الثقافة التي نجنيها من عاشوراء ثقافة ميدانية لا يستغنى عنها جمهورنا فهي التي تمكنه من الثبات في ارض المعركة، وتمنحه الثقة بالله تعالى، والقدرة على الصبر على ضراوة الصراع، وشراسته، ومعاناته وعذابه وتمنحه الثقة بوعد الله تعالىٰ للمؤمنين بالنصر وتمكنهم من تغيير الرؤية وسعة الافق، والبصيرة النافذة.

وجمهورنا بحاجة ملحّة الى هذه الثقافة وعاشوراء غنيٌ بهذه الثقافة وغنيٌ بافاق جديدة للتفكير.

وخطباء المنبر الحسيني مسؤولون عن اكتشاف هذه الافاق، وتقديم هذه المفاهيم والافكار الى رواد المنبر الحسيني واثراء المجالس الحسينية بمثل هذه الافكار والمفاهيم.

وفي هذه الاحاديث محاولة ـ ولست اقول اكثر من ذلك ـ لاكتشاف وقراءة الأبعاد غير المرئية او غير المقروءة ليوم عاشوراء، ولعرض هذه الافكار والافاق الفكرية ليوم عاشوراء على جماهير المنبر الحسيني الذي يحرك حسهُم الفطري.

ففي المواجهة التي حصلت يوم عاشوراء بين هذين المعسكرين ما لا يجده الكثير من المفكرين والمثقفين بالوسائل الاعلامية التي تملكها بالبحث العلمي التأريخي.

* * *

وقد كانت هذه الأحاديث في البدء مجموعة من المحاضرات تناولت يوم عاشوراء بالتأمل والتحليل، القيتُها على جمع من فضلاء الحوزة العلمية وخطباء المنبر الحسيني في قم المقدسة.

وقد عمد اخي في الله العالم الجليل الحجة الشيخ حسين الربيعي حفظه الله الى تسجيل هذه التأملات. واضاف عليها من فكره النقي وروحه الشفافة ما ليس في الاصل فاصبحت هذه المجموعة من المحاضرات التي نرجو ان ينفع الله تعالى بها اخواننا خطباء المنبر الحسيني ويفتح عليهم بها ابواباً جديدة من الأفكار والتأملات لاثراء المنبر الحسيني ولتثقيف جماهير هذا المنبر وتتسع دائرة حضورة سنة بعد أخرى والله تعالى الموفق والمسدد.

محمد مهدي الاصفي
٢ ربيع الثاني ١٤١٦



عاشوراء في وعي الجماهير

نحاول أن نقف وقفات تأمل في رحاب عاشوراء ولذلك سوف لا نتحدث عن الأحداث التي سبقت يوم العاشر من المحرم ولا التي لحقت به وإنما نتحدث عن سويغاته القصيرة في عداد الزمن الطويلة في بعدها الرسالي، ابتداءً واستمراراً إلى يوم القيامة كما ورد في الحديث الشريف:

«إن لقتل الحسين حرارةً في قلوب المؤمنين لن تبردَ أبداً»[1].

إن ثورة الحسين يمكن أن نُجزّئها إلى ثلاث مراحل:

١ ـ مرحلةُ تحركه من المدينة إلى مكة ثم إلى العراق وما قبلها.

٢ ـ أحداث يوم العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ.

٣ ـ الأحداث التي لحقت يوم عاشوراء.

وحديثنا ينصب على أحداث يوم عاشوراء فقط فهذه الأحداث تنطوي على قيم فكرية، وروحية وأخلاقية وسياسية واجتماعية، نحن بأمس الحاجة اليوم للوقوف عندها وقفة تأمل عميقة لنرَى ما فيها من أبعاد رسالية وإنسانية لأن: «شهادة الحسين (ع) في كربلاء بحاجة إلى دراسة علمية ونفسية وروحية وزمنية وافية على أعلى المستويات. ان في ثنايا هذه الملحمة تكمن أسس أخلاقية لو أُظهِرتْ للبشرية بشكلٍ مدروس لتغيرت

---

(١) مستدرك الوسائل ح ٢ ص ٢١٧ الطبعة القديمة للشيخ النوري.

نظريات كثيرة، ولأعطتْ أجوبة شافية للعديد من المسائل الروحبة والزمنية وكيفية الربط بينها.

إن نهضة الحسين على الرغم مما قدمت حتى الآن لم تزل تخزن في جوهرها كنوزاً من الكيفيّات والدساتير والأساليب والنتائج ذات الصلة الماسة بمختلف الأصعدة الإنسانية بشكل عام، وبالعديد من القضايا المعاصرة بشكل خاص.

ومما يؤسف له أن هذه الأبعاد الواسعة لثورة الحسين لم تلق بعد العناية الكافية من قبل الباحثين والمفكرين الذين أوْلَوا يوم عاشوراء اهتماماً خاصاً رغم كثرة الدراسات لأحداث هذا اليوم العظيم.

إننا كلما عمّقنا النظر في يوم عاشوراء، ودققنا في التعاطف الواسع من قبل جماهير المسلمين مع حادث الطف وقسنا هذا الذوبان الجماهيري مع نتاج المفكرين نلاحظ حقيقةً مهمةً وهي:

إنَّ الجمهور أوعى لعاشوراء وأكثر ادراكاً له، وأقوى تعاطفاً معه، وأسبق تفاعلاً فيه من أقلام المفكرين الذين يعتمدون عصا التحليل والتفسير العلمي لهذا الحدث العظيم!! ومن غرائب الأمور أن يمشي المفكرون خلف الجمهور، ويأخذون وعي هذا اليوم من الجمهور، ولابأس بذلك، وإنما البأس أن يتخلف الباحثون والعلماء ولا يدركون ما يدركه الجمهور بوعيه الفطري، وحُبِّهِ الرسالي لآل رسول الله (ص).

عناصر التفاعل الجماهيري مع ثورة الحسين

إن هذا التفاعل العميق يجب أن نحلله إلى عناصره الرئيسية كي نقف على أبعاده الرسالية.

١ ـ قُوَّة التفاعل الوجداني مع حادث الطف على امتداد أيام السنة، وبالخصوص في شهر محرم وصفر، وفي ليلة عاشوراء يتألق الطف فوق العادة، وتبلغ العواطف ذروتها من التفاعل الوجداني عند استعراض مواقف الحسين البطولية وصبره وسموه وتحديه وصموده أمام الرزايا الكبيرة التي واجهها عند استشهاد أبنائه وأخوته وأصحابه، ثم توجُّه الجمهور إلى زيارته من قريب أو من بعيد.

ولا نعرف حدثاً استقطب عواطف الناس ـ على اختلاف مذاهبهم وَنحلهم ـ كعاشوراء على طول خط التاريخ، ولا تعرف أمراً امتزج بمشاعر الجمهور بهذه القوة كيوم عاشوراء.

٢ ـ الرقعة الواسعة في تأثير يوم عاشوراء في مختلف بقاع العالم من غرب آسيا إلى إيران والعراق وسوريا ولبنان وتركيا وسائر بلدان الجزيرة العربية وفي أفغانستان وتركستان والتبت والصين وجزر الهند الشرقية وأفريقيا وأوربا وأمريكا لاسيما بعد الصحوة الإسلامية المباركة وهجرة الكثير من المؤمنين إلى مختلف بقاع العالم.

٣ ـ الفترة التاريخية الممتدة من أيام بني أمية في سنة ٦١ للهجرة إلى يومنا هذا، فلا نعرف حدثاً عاش في الوجدان الانساني هذه المدة الطويلة

دون أن يفقد فاعليته وحرارته في عقول المسلمين وعواطفهم واستمر بنفس الحرارة بل نراه يزداد تألقاً جيلاً بعد جيل.

٤ ـ إن الملوك والسلاطين وجميع الطواغيت كانوا يشعرون بالخطر المحدق بمصالحهم في اقامة الشعائر الحسينية، وينظرون إلى انشداد الجمهور إليها بتحفظ وريبة حتى وصل الأمر بهم إلى هدم قبر الحسين وإعفاء أثره، ومنع زيارته كما فعل هارون الرشيد حيث «أمر بهدم القبر المطهر وكرب موضعه وقص شجرة السدر التي كانت بجوار القبر من جذورها سنة (١٧١ هـ) ومنع من إقامة المأتم والمناحات سواء على القبر أو في دور ومجتمعات الشيعة»[١].

وفي سنة ست وثلاثين ومائتين (أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي (ع)، وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يبذر ويسقى موضع قبره، وأن يمنع الناس من اتيانه، فنادى [عامل صاحب الشرطة] بالناس في تلك الناحية من وجدناه عند قبره، بعد ثلاثة حبسناه في المُطبَق! فهرب الناس، وتركوا زيارته وحُرث وزرع)[٢].

ومع هذا الارهاب والحذر والريبة من قبل الحكام من عصر بني أمية إلى عصرنا الحاضر، نرى أن تفاعل الناس يزداد يوماً بعد يوم وجيلاً بعد جيل رغم محاولات الطغاة واتباعهم لإطفاء هذا النور واعفاء أثره وكأن هذا ما تنبأت به الحوراء زينب (ع) وهي تقرأ صفحات المستقبل حين مرت على الأجساد الطاهرة وهي مضرجة بدمائها وقد رأت الإمام زين العابدين (ع) يجود بنفسه فقالت له:

«مالي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي واخوتي فوالله إن هذا لعهد من الله إلى جدك وأبيك ولقد أخذ الله ميثاق أناس لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض، وهم معروفون في أهل السموات أنهم يجمعون هذه الأعضاء

---

(١) تاريخ النياحة للسيد صالح.الشهرستاني ج ٢ ص ٥.
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٧ ص ٥٥.

المقطعة والجسوم المضرجة فيوارونها، وينصبون بهذا الطف علماً لقبر أبيك سيد الشهداء لا يُدرس أثره ولا يُمحى رسمه، على كرور الليالي والأيـام وليجتهدن أئمة الكفر وأشياع الضلال في محوه وتطميسه فلا يزداد أثره إلا علواً»[1].

ولأجل امحاء أثر عاشوراء استعمل الطغاة مختلف الأساليب ولكنّ جميعها باءت بالفشل، ومن هذه الأساليب حاول بنو أمية جعل يوم العاشر من المحرم يوم عيد وفرح وسرور وبركة.

يقول الإمام الصادق (ع): «لما قتل الحسين (ع) تقرّب الناس بالشام إلى يزيد، فوضعوا له الأخبار وأخذوا عليها الجوائز من الأموال، فكان مما وضعوا له أمر هذا اليوم، وأنه يوم بركة ليعدل الناس فيه من الجزع والبكاء والمصيبة والحزن إلى الفرح والسرور والتبرك والاستعداد فيه، حكم الله بيننا وبينهم»[2].

هذا غيض من فيض من محاولات الطغاة لدفن أثر الحسين (ع) ولكن بالرغم من هذا ازداد تألقاً وامتزاجاً في وجدان الناس جميعاً فضلاً عن شيعته لكونه (عنواناً صريحاً لقيمة الثبات على المبدأ، فغدا حبه كثائر واجباً علينا كبشر، وحبه كشهيد جزءاً من نفثات ضمائرنا فقد كان عليه السلام شمعة الإسلام أضاءت ممثلة ضمير الأديان إلى أبد الدهور، وكان درعاً حمى العقيدة وذبَّ عنها خطر الاضمحلال، وكان انطفاؤه فوق كربلاء مرحلة أولى لاشتعال أبدي كمثل التوهج من الانطفاء والحياة في موت»[3].

ونحن لا يمكننا أن نتصور هذا الذوبان الجماهيري في حدث الطف، وبهذه السعة في الأرض، وفي هذا التاريخ الطويل، وبهذا التحمل

---

(١) كامل الزيارات ص ٢١٦ باب ٨٨ فضل كربلاء وزيارة الحسين.

(٢) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٢٧٠ طبعة المكتبة الإسلامية طهران.

(٣) الحسين في الفكر المسيحي ص ٦٥ الطبعة الثانية الكويت.

الشديد، والبذل بالمال والوقت بل والنفوس، وبهذه الشدة من التحدي للطغاة من أجل احياء شعائر عاشوراء، وبهذه السعة من المشاركة، من مختلف طبقات الناس، يمكن أن يحدث ويستمر بهذه الجذوة، من دون أن يكون الجمهور قد وجد بوعيه الفطري في هذا الحدث وفي هذه السويعات مَن الآفاق الواسعة والقيم السامية المخبوءة في عاشوراء حاجته الوجدانية مما يروي عطشه الروحي. وهذا ما لم يستطع العلماء تحليله، ونحن لا نستطيع أن نفهم ونعي عاشوارء على حقيقتها دون أن نفهم الأسباب الكامنة وراء هذا التفاعل الذي لا نظير له أبداً.

أسباب انشداد الناس لثورة الحسين

ونعود ونتسائل: ما هي أسباب هذا التفاعل الوجداني لجماهير الناس مع نهضة الحسين (ع)؟.

وللجواب على ذلك نقول: إن هذا الانشداد والتفاعل جاء من سببين.

١ ـ مشيئة الله تبارك وتعالى وسيأتي اثبات ذلك في بحوث قادمة انشاء الله تعالى.

٢ ـ إن جماهير الناس قد وجدت في عاشوراء شيئاً يتناغم مع ضمائرها وعقولها وعواطفها، كما وجدوا فيه ذاتهم وزادهم في المسير إلى الله تعالى.

فإن الناس في حركتهم الكادحة الشاقة إلى الله تعالى يحتاجون إلى موجّه ومثال يقتدون به، فلا يكفي الطرح النظري، والعرض المفاهيمي المجرد، وإنما يحتاج السالك إلى الله تعالى الى من يتقدمه في المسير، ويُذهب عن قلبه الشعور بالقلق والاضطراب والانهزام النفسي ويمنحه الثقة ورباطة الجأش وهذا لا يحصل بالتوجه المجرد والوعظ اللفظي، وإنما يحصل من خلال القدوة والأسوة والمثال، فالذي يتقدم العاملين ويضحي بكل ما يملك يصبح مقياساً ومعياراً متجسداً يقتدون به، وبمقدار ما يحتاج الناس في حركتهم إلى الله إلى معلم وموجه يحتاجون إلى مثال يتقدم المسير، لأن الحركة إلى الله كدح لا يتحمله إلا القليل من ذوي الهمم العالية.

إن ما يلاقيه الإنسان في حركته إلى الله تعالى من العقبات الكثيرة المتواصلة من الهوى، والطاغوت يحتاج إلى أكثر من مُعَلِّم، فإن المعلم في اجتياز هذه العقبات لا يؤدي إلا دوراً ناقصاً، ولا يستطيع أن يصنع إنساناً ينهض بكل مسؤوليات الرسالة فلا بد له من قدوة تجسد له كل متطلبات المسير من الوعي والاخلاص واليقين والشجاعة والثقة والصبر والطمأنينة، ولا بد أن تكون هذه القدوة خالصة ومنزهة من جميع السلبيات والشوائب التي تعيق المسير وتثبط العزائم باعتبار أنَّ القدوة لها قيمة توجيهية وحركية عالية في بناء شخصية الإنسان والارتقاء به إلى معارج الكمال، وذلك لأن النفس الإنسانية تحمل مجموعة من الحالات المتضادة من الخير والشر والتقوى والفجور والقوة والضعف والثقة والقلق والشجاعة والجبن مما يجعلها بحاجة إلى أمثلة حيّة، ونماذج واقعية تتأسّى بها النفس وتسيرُ على هديها في تقوية الجوانب الإيجابية وتضعيف الجوانب السلبية فيها وكل من الساحتين ساحة الحق وساحة الباطل تحتاج القدوة، وعندما لا يجد الإنسان القدوة يحاول أن يصطنع القدوة بعملية تجريدية خيالية وهذا دور الأدب والفن الذي يتمثل القدوات الأسطورية. وبنظرة سريعة إلى تاريخ الشعوب نجد كل قوم لهم قدوة حقيقية أو وهمية ينسبون إليها الكمال ويهبونها القداسة، وعلة ذلك أن الإنسان دائماً وأبداً بحاجة حقيقية إلى القدوة في كل حركة سواء من أجل الحق أو من أجل الباطل.

والمسلم دائماً بحاجة ملحة إلى القدوة. ولذلك لا بد من موقف واضح في الخلق والهداية﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خَلْقَهُ ثُمَّ هدى﴾[1]. وهذا أحد منطلقاتنا في فهم العصمة وضرورتها لأن المعصوم هو النسخة الفريدة المنزهة من كل الشوائب كالشك والحيرة والقلق والضعف، وفهم هذه الحاجة يجعلنا نؤكد أن وجود المعصوم حاجة ضرورية في كل زمان ولا استغناء عنها.

---

(١) سورة طه: ٥٠.

دورة الاسوة في حياة الإنسان الرسالي

عندما تكون الساحة ساخنة والصراع مشتعل بين الحق والباطل تشتد الحاجة إلى الاسوة والقدوة، والمعصوم هو المثال الكامل والقدوة الفريدة في مسيرة الإنسان ولهذا الأمر جعل الله سبحانه وتعالى في مسيرة الإنسانية الأنبياء والأئمة معصومين ليكونوا أمثلة حيّة يُقتدى بهم. ولذلك نرى أن الله تعالى قد ابتلى خليله ابراهيم (ع) بلاء شديداً، فلما فاز جعله إماماً، وحينما طلب الإمامة لذريته جاءَ الجواب من لدن الخالق سبحانه وتعالى سريعاً صريحاً إن الظالمين لن يكونوا أئمة.

﴿وإذ ابتلىٰ إبراهيم ربهُّ بكلمات فاتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهد الظالمين﴾[1] فالذي لا يستطيع أن يكون قدوة ومثالاً لا يمكن أن يكون إماماً للناس، ومن هذا المنطلق طرح القرآن الكريم نماذج معصومة على طول المسيرة وطلب من الناس أن يربطوا مسيرة حياتهم بعجلة هؤلاء.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشرف وأكمل نموذج إنساني عرفه التاريخ. بل هو عصارة مسيرة الكمال على طول خط النُّبوَّات، ومع ذلك أمره الله تعالى أن يقتدي بمن قبله من الأنبياء يقول تعالى: .

(١) سورة البقرة: ١٢٤.

﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم إقتده﴾[1].

وجعل الله رسوله الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم قدوة للمؤمنين يقول تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾[2] فإذا أظلمت دنيا الناس، وضاقت دروبها على المؤمن، وحوصر من كل حدب وصوب فعليه أن ينظر في مسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله ليستمد منها الصبر والعزم والتصميم فتعود إلى نفسه الطمأنينة والقوة ويواصل عمله دون تراجع.

وهكذا يجد السائر إلى الله تعالى غذاءه الروحي في الثبات والمواصلة في سيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله مهما أدبرت الدنيا وضاقت السبل، يقول أمير المؤمنين (ع) «لقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كافٍ لك في الأسوة ودليل لكَ على ذم الدنيا وعيبها وكثرة مخازيها ومساويها إذ قُبِضَتْ عنه أطرافُها ووطِّئَتْ لغيره أكنافُها، وفُطِمَ عن رضاعها وزوي عن زخارفها، فتأس بنبيك الأطيب الأطهر (ص) فإن فيه إسوة لمن تأسّى وعزاء لمن تعزّى وأحبُ العباد إلى الله المتأسّي بنبيه والمقتصُ لأثره»[3].

ويجعل الله تعالى من إبراهيم قدوة وأسوة للمؤمنين لما اتصفتْ به شخصيتُه المباركة من كمال وسمو رفعه في الدعوة إلى الله، والصبر على محن طريق ذات الشوكة، وتجردٍ كامل عن كل ما سوى الله تعالى. قال تعالى.

﴿لقد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُرَءاؤُ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده... لقد كان لكم فيهم اسوة حسنة

---

(١) سورة الأنعام: ٩٠.
(٢) سورة الأحزاب: ٢١.
(٣) نهج البلاغة خطبة رقم (١٦٠) المعجم.

لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتولّ فإن الله هو الغني الحميد﴾[1] وإذا اكتملت الصورة وتجلت الحقيقة نقول: إن الإنسان في سيره وسلوكه إلى الله تعالى يحتاج إلى ثلاثة أمور أساسية وهي:

١ ـ معلم مربي وهادي مرشد، قال الله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[3].

٢ ـ قيادة ربانية وولاية إلهية وحكم يَشده إلى الله، ويهديه إلى الصراط المستقيم قال تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾[4] ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾[5].

٣ ـ قدوة نقية صافية مبرأة من الرجس والدنس ليس فيها نقطة ضعف، ولا تثير علامة استفهام تمثل القيم الرسالية والأخلاق الإلهية تمثيلاً حياً بحيث تكون تلك القيم متجسدة في سلوكها وبلا شك إن وجود هذه القدوة بين الناس تكون مبعث إطمئنان وهداية.

وحتى يتوضح هذا المطلب جلياً نتأمل قليلاً في قوله تعالى ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[6].

---

(١) سوة الممتحنة ٤ ـ ٦.
(٢) سورة الجمعة رقم ٢.
(٣) سورة آل عمران: ١٦٤.
(٤) سورة المائدة: ٥٥.
(٥) سورة النساء ٥٩.
(٦) البقرة: ١٤٣.

فنحن نفهم الشهادة الثانية بقرينة الشهادة الأولى فإن شهادة الأمة على البشرية لا تستقيم إلا حينما جعلها الله تعالى في موقع حضاري وسط يؤهلها لتكون صالحة للتأسي والاقتداء، فموقع الشهادة يأتي من موقع الوسطية الحضاري التي جعلها الله فيه، فلا تجنح إلى اليسار ولا تميل إلى اليمين، فلا تميل إلى النزعة المادية الصرفة، ولا تجنح إلى المفاهيم المجردة كلياً، وكما هي شاهدة على الأمم فإن رسول الله (ص) قدوة هذه الأمة وشاهد عليها. والتعبير عن الموقع الوسط من التعبيرات القرآنية المتميزة، وإنما سمي بموقع الشهادة لأن هذا الموقع من هذه الأمة موقع الناظر على سائر الأمم ومن رسول الله (ص) على سائر الأمة، هذا الموقع يجعل من هذه الأمة ميزاناً نقيس بها استقامة مسيرة الأمم كما تشخّص استقامة الأمة باستقامة رسول الله (ص)، فالأمة الإسلامية وحدة قياسية بالنسبة للأمم، وكذلك رسول الله بالنسبة للأمة.

والحالة اللامستقرة التي تعيشها الجماعة الإسلامية في جوها المضطرب بحاجة ماسة إلى وجود تيار نقي من جميع الشوائب يعيش في وسطها ليكون مقياساً لها ترجع إليه عند تقييم مسيرتها كما جُعلتْ هي مقياساً للبشرية جمعاء.

إن هذه الأمة الوسط المباركة هي الصفوة في البشرية، وصفوة الصفوة رسول الله (ص) وأهل بيته المعصومين وقد جعلهم الله مقياساً لنا، هدى وأسوة ورحمة قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون، وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾[1].

---

(١) سورة الحج ٧٧ ـ ٧٨.

فالخطاب للذين آمنوا، أصحاب الموقع الوسط، ولهذا الموقع ضريبة هي الركوع والسجود والعبادة والجهاد، وليس علينا حرج في هذا الموقع بعد توفير متطلباته ثم هنا اشارة دقيقة وهي بيان انتماء هذه الأمة وامتدادها التاريخيي فهي أسرة إبراهيم خليل الرحمن، وبهذا الامتداد العميق والارتباط الوثيق، وهذا الجهد العظيم أصبح رسول الله (ص) شهيداً عليكم لتكونوا أنتم قدوة البشرية جمعاء، فحياة الناس إذن لا تستقيم إلا بالقدوة الحسنة، لأنهم يعيشون في ساحة صراع دائم وأكثر ما يحتاج الإنسان إلى القدوة وقت احتدام الصراع واشتداده ثم إن القدوة التي تثبتنا في ساحة الصراع هي من نفس ساحة الصراع وفي ساحات الصراع تتجسد أعلى القيم وأسخاها وأحط درجات اللؤم والدناءة، فالقدوة مصباح يكشف باطن الإنسان، فالإنسان الذي يستبطن القيم لا يمكن أن تكتشفه إلا في ساحة الصراع، وكذلك لا يمكن أن يتجلى وينكشف لؤم الإنسان وحقارته إلا في ساحات الصراع فهما جبهتان، جبهة قيم ومبادىء سامية وجبهة لؤم وفساد، ونحن نحتاج القيم التي تتجسد أمامنا في ساحة الصراع...

ويوم عاشوراء ساحة صراع متميزة لا نظير لها على طول خط التاريخ البشري، أفرزت الناس في جبهتين: جبهة حق وعدل وعطاء وإنسانية وتضحية وفداء وجهاد، وجبهة غاية في اللؤم والخسة والحقارة والانحراف، وقلَّ أن تجد جبهتين بهذا التباين من الارتفاع والسمو والانحطاط والدنو وسبب هذا الفرز هو طبيعة الصراع، فيوم عاشوراء مرآة عكست لنا حقائق الجبهتين ولذلك بقيت حيّةً في الضمائر والوجدان وهذا هو السبب في ارتباط الناس بها على طول هذه المدة المديدة.

فالحسين إسوة وقدوة والحسين ميزان يقاس به حامل الرسالة الصادق من المنتحل الكاذب والحسين مثال الإنسانية الخالد وذروة الفضيلة وأروع من جسد روح الجهاد والفداء بكل غال ونفيس.

عاشوراء مرآة التاريخ كله

العامل الثاني[1]:

لانشداد المؤمنين بحادث الطف معنىً هو الود الذي جعله الله في قلوب المؤمنين للحسين عليه السلام، فمن الحقائق التي لا يرقى إليها الشك أن ودَّ الصالحين أمر يغرسه الله في قلوب المؤمنين ولا يستطيع أحدٌ أن ينتزعه ونحن نرى أن الإعلام قد يحاول أن يرفع شخصاً ويضع آخر، ولكن لا يستطيع أن يخلق القدسية والود في النفوس لمن يريد أن يرفعه فهذا الذي تفعله الأجهزة الإعلامية يختلف كمياً ونوعياً عن الانشداد الوجداني للهِ في نفوس المؤمنين لأولياء الله تعالى. فهو صناعة وتكوين الهي يقول تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾[2]. فالود الذي يجعله الله في قلوب المؤمنين للصالحين لا يمكن تغييره وانتزاعه. عن رسول الله (ص) ﴿إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه، قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض...﴾[3].

---

(١) راجع ص ١٠ العامل الأول.

(٢) سورة مريم ٩٦.

(٣) رواه أحمد في مسنده، والبخاري.

وقد كان رسول الله يعلّم علياً (ع) فيقول له قل: ﴿اللهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي في قلوب المؤمنين مودة﴾[1].

ونحن نفهم أن انشداد المؤمنين ليوم عاشوراء هو تعبير عن هذا الود للحسين (ع) فإن القلوب لها جاذبة تجذبها للصالحين وتشدها إليهم، ولها دافعة تنفرها من الطالحين، ولهذا نرى أن قلوب الصالحين تنجذب لأمثالها، وفوق هذا يبعث الله في القلوب اقبالاً وادباراً فإن قلوبنا بين إصبعين من أصابع الرحمن كما جاء في الحديث، فالله هو الذي يتصرف في قلوب عباده، يقول تعالى: ﴿واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه﴾[2].

وليس الإنسان إلا هذا القلب، الذي فيه الاقبال والادبار والنفور والاستجابة، وهو مصدر الحب والبغض، فأنت تحب إنساناً فلا تستطيع أن تكرهه وقد تنفر من آخر فلا تستطيع أن تحبه وتقبل عليه، هذه الحالة الصقُ شيء بالإنسان، وألصقُ شيء بالإنسان قلبه، ونحن لا نعرف تعبيراً أبلغ وأدق من هذه الآية ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ فقد يُحال بين الرجل وزوجته، أو بين الصديق وصديقه فهذا أمر طبيعي ممكن؛ أما أن يحول بين المرء وقلبه فأمر أعجب من العجيب!! حيث أن الإنسان لا سلطان له على حبه وبغضه ﴿فإن الله سبحانَهُ لما كان هو الحائل بين الإنسان وقلبه، وهو المالك للقلب بحقيقة معنى الملك كان هو المتصرف في القلب قبل الإنسان وله أن يتصرف فيه بما يشاء﴾[3].

وقد ورد عن أبي عبدالله (ع) في قوله تعالى ﴿يحول بين المرء وقلبه﴾ قال: هو أن يشتهي الشيء بسمعه وبصره ولسانه ويده أما إن هو غشي شيئاً بما يشتهي فإنه لا يأتيه إلا وقلبه منكر لا يقبل الذي يأتي يعرف

---

(١) مجمع البيان.
(٢) الأنفال ٢٤.
(٣) الميزان ج ٩ ص ٤٨.

أن الحق ليس فيه»[1].

ويا لها من صورة رهيبة مخيفة للقدرة القاهرة يحول بين المرء وقلبه، فيفصل بينه وبين قلبه، ويستحوذ على هذا القلب ويحجزه ويصرفه كيف يشاء ويقلبه كما يريد، وصاحبه لا يملك منه شيئاً وهو قلبه الذي بين جنبيه!.

إنها صورة رهيبة حقاً؛ يتمثلها القلب في النص القرآن، ولكن التعبير البشري يعجز عن تصوير ايقاعها في هذا القلب، ووصف هذا الايقاع في العصب والحس!.

إنها صورة تستوجب اليقظة الدائمة والحذر الدائم والاحتياط الدائم، اليقظة لخلجات القلب وخفقاته ولفتاته، والحذر من كل هاجسة فيه، وكل ميل مخافة أن يكون انزلاقاً؛ والاحتياط الدائم للمزالق والهواتف والهواجس وللتعلق الدائم بالله ـ سبحانه ـ مخافة أن يقلب هذا القلب في سهوة من سهواته، أو غفلة من غفلاته، أو دفعة من دفعاته.

ولقد كان رسول الله (ص) وهو رسول الله المعصوم يكثر من دعاء ربه: «اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فكيف بالناس وهم غير مرسلين ولا معصومين»[2].

قد يقهر الإنسان في جوارحه وإرادته، أما أن يقهر على قلبه فلا أحد يملك هذا السلاح إلا الله، فليس للإنسان أن يحب من يكره أو يكره من يحب ولا أحد يستطيع أن يتصرف بقلب الإنسان إلا الله تعالى، يقول الإمام الصادق (ع) إزالة الجبال أهون من ازالة قلب عن موضعه[3].

هذا القلب الذي تزول الجبال ولا يتزلزل يتصرف به الله تعالى كيف يشاء والله تعالى يتصرف في قلوب الطغاة أيضاً، فقد تصرف في قلب

---

(١) بحار الأنوار م ٧ ص ٥٨ ح ٣٢.
(٢) في ظلال القرآن ح ٣ ص ٨٣٤.
(٣) بحار الأنوار ج ٧٨ ح ٨.

فرعون وألقى فيه حب موسى الذي كان يفتش عنه ليقتله يقول تعالى لموسى: ﴿وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني﴾[1] نعم هكذا يتصرف تعالى ليقهر الظالمين يأتي بعبده فيربيه ويصنعه في بيت عدوه الذي يفتك بالآخرين عله يعثر عليه. يفتش عنه بقوة وهو في حصنهُ يحبه ويرعاه إذن الإنسان مهما كان لا يملك أمر قلبه ولا يستطيع أن يتصرف به دون أمر الله تعالى فالإنسان يريد والله يريد ولا يكون إلا ما يريد الله تعالى. ورد عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال:

(أوحى الله إلى داود تريد وأريد ولا يكون إلا ماأريد، فإن سلّمت لما أُريد أُعطيتَ ما تريد، وإن لم تسلّم لما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد)[2].

والحب الذي جعله الله في قلوب المؤمنين للحسين (ع) والذي وصفه الحديث الشريف بالدوام والاستمرار والحرارة التي لا تبرد لا يمكن تفسيره تفسيراً علمياً تحليلياً، وإنما هي مشيئة الله التي شدت عواطف الناس ووجدانهم بالحسين إلى يوم القيامة، وهذا لا يمكن أن يكون عفوياً ومن دون إعداد إلهي مسبق ومن هنا جاء التأكيد على حب الحسين (ع) على لسان النبي (ص) كما روى ذلك السنة والشيعة، وبألفاظ مختلفة[3] فهو ثمرة قلب رسول الله (ص)، وهو أحب أهل الأرض إلى أهل السماء. وكان (ص) يُقَبِلُ الحسين ويقول: (اللهم أَحبه فإني أحبه)، وهو والحسن عليهما السلام سيّدا شباب أهل الجنة.. وهو من رسول الله (ص) كروحه وهو ريحانة رسول الله (ص).

وهكذا يتبين أن حب الحسين أمر إلهي ليس في قلوب المؤمنين فقط، بل حتى في قلوب بعض المحاربين له (ع) فقد جاء في ترجمة عبدالله بن عمرو بن العاص، روى اسماعيل بن رجاء عن أبيه قال: كنت

---

(١) سورة طه ٣٩.

(٢) المصدر الذي ورد فيه الحديث.

(٣) راجع فضائل الخمسة في الصحاح.

في مسجد رسول الله (ص) في حلقة، وفيها أبو سعيد الخدري، وعبدالله بن عمرو، فمر بنا الحسين بن علي عليهما السلام فسلم فرد القوم السلام، فسكت عبدالله حتى فرغوا رفع صوته وقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثم أقبل على القوم فقال: ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟ قالوا: بلى، قال: هذا هو الماشي ما كلمني منذ ليالي صفين، ولأن يرضى عني أحب إلي من أن يكون لي حمر النعم، فقال أبو سعيد: ألا تعتذر إليه قال: بلى قال: فتواعدا أن يغدوا إليه قال: فغدوت معهما فاستأذن أبو سعيد فأذن له فدخل ثم استأذن لعبدالله فلم يزل به حتى أذن له فلما دخل، قال أبو سعيد الخدري: يا بن رسول الله إنك لما مررت بنا أمس فأخبره بالذي كان من قول عبدالله بن عمرو ـ فقال الحسين (ع): أعلمت يا عبدالله إني أحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟ قال: أي ورب الكعبة قال فما حملك على أن قاتلتني وأبي يوم صفين فوالله لأبي كان خيراً مني...»[1].

وإنما جعل الله حب الحسين في القلوب لحكمة أرادها تعالى وهي أن يجعل قضية الحسين ودمه الزكي تجديداً لدينه في كل وقت وزمان فما ذكر الحسين إلا واقترن ذكره بذلك الهدف العظيم الذي ضحى من أجله بكل شيء.

(١) مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٧٦ أسد الغابة ج ٣ ص ٢٣٤.

ـ الدور الانفعالي والدور الفعلي ليوم عاشوراء ـ

ليوم عاشوراء صفتان بارزتان لهما دور مهم في معرفة أسراره.

الصفة الأولى:

إن يوم عاشوراء مرآة عاكسة للتاريخ كله على طول عمر الزمن.

الصفة الثانية:

إن يوم عاشورة له دور فاعل ومهم في حركة التاريخ.

ولنسلط الضوء على هاتين الصفتين، أي بيان الدور الفعلي والدور الانفعالي لهذا اليوم العظيم.

أما كونه مرآة ونافذة مطلة على التاريخ، فإن الساعات القليلة من يوم عاشوراء، والتي لا تتجاوز أصابع اليدين، بأحداثها القليلة العظيمة ترينا كل حركة التاريخ البشري، وقد تجسدت فيها كل سنن الله تعالى، سنّةِ الدعم الإلهي وسنّةِ التأييد، وسنّةِ المقاومة، وسنّة الاهلاك والصبر والنصر فعاشوراء مرآة صافية تعكس التاريخ كله بصورة كاملة واضحة جلية، ولو قرأنا عاشوراء قراءة تأمل لاستطعنا أن نقرأ حركة التاريخ كلّه، ولنعم القول ما قاله الشيخ عبدالله العلايلي:

«وحياة الحسين (ع) عظة من التاريخ، ولكن تجمع التاريخ كله؛

فليس معناها في حدود ما وقعت من الزمان والمكان، بل حدودها حيث لا تتسع لها حدود.

«وهي بعد ذلك حديث الشخصية الكاملة من أقطارها، ففيها القدوة الصالحة، وفيها المثل الأسمى للإنسان الكامل، والصراط السوي للمسلم القرآني، وربما امتازت مسيرة هذه الشخصية بشيء آخر عن الشخصيات التاريخية بأنها تقع في مضاعفات كبيرة تجمع شتى الصور، بحيث تعطي في كل صورة شخصية فذة، وإنسانية رفيعة»[1].

«ونحن إذا قدمنا حسيناً بين العظماء فإنا لا نقدم فيه عظيماً فحسب، وإنما نقدم فيه عظيماً دونه كل عظيم، وشخصيته أسمى من كل شخصية، ورجلاً فوق الرجال مجتمعين»[2].

«فلم تكن ذكراه ذكرى رجل بل ذكرى الإنسانية الخالدة، ولم تكن أخباره أخبار بطل بل خبر البطولة الفذة»[3].

التاريخ ليس سلسلة تعاقب أحداث مجردة إذا كنا نفهم التاريخ بهذا المعنى فهذا فهم ساذج بسيط، والصحيح إن السنن الإلهية هي التي تشكل التاريخ، وتمثل عناصره وهذه الأحداث التي نقرأها في كتب التاريخ لا تأتي بصورة عفوية وإنما هي مفردات حدثت طبقاً لسنن وضعها الله لخلقه، فالذي يفهم سنن الله يستطيع أن يفهم ما يجري والذي يجهلها لا يدري بما يجري، فالذي يفهم سنن الله في الغرباء ويستطيع أن يفهم ما يجري في الطبيعة، وهكذا الذي يفهم سنن الله في الكيمياء يستطيع أن يفهم ما يجري في تركيب المواد وتفاعل العناصر فالتاريخ إذن هو جريان سنن الله في الحياة ومن هنا نستطيع معرفة علّة قيام حضارة ما وسقوط أخرى ولماذا

---

(١) الإمام الحسين عبدالله العلايلي ص ٩.

(٢) نفس المصدر ص ٩٠ ـ ٩١.

(٣) المصدر السابق: ص ٩٢.

فتح الله على هؤلاء أبواب نعمه وبركاته، ولماذا أنزل النقمة على قوم آخرين؟.

كيف نفهم سنن الله تعالى:

الصراع بين الحق والباطل، أو بين جند الله وجند الشيطان هي أفضل ميدان نستطيع أن نفهم فيها سنن الله تعالى، فالصراع هو الأكثر تأثيراً في مجال فهم التاريخ.

الماركسيون يقولون أن الصراع الطبقي هو المتحكم في مسيرة التاريخ، ولا نريد أن نناقش ذلك الآن، ولكن نقول إن الصراع ليس هو الأساس والمنطلقْ وإنما هو نتاج لسنن الله فهو ليس علة بل لا يصلح أن يكون جزء عله، ولكن الماركسية لا تفرق بين السبب والمُسَبَّبْ فالصراع مُسَبَبْ، وسنن الله هي السبب والدور الأساسي في صناعة التاريخ هو الصراع بين جند الله وجند الشيطان. وأكثر خصائص سنن الله تعالى تبرز لنا في ساحات الصراع فهذه الساحات لا تجمع هذه العناصر وحسب ولكنها تبرزها في الواقع الخارجي، فهي مختبر دقيق يكشف عناصر الحق وعناصر الباطل، وتكشف دخائل النفوس ومضمرات القلوب.

ففي النفوس حب وبغض وشجاعة وجبن وإيمان وكفر وشك ويقين وايثار واستئثار وكرم ولؤم، وسمو وخسة، وكل هذه الأمور كامنة في ذات الإنسان لا يبرزها إلا الصراع ولا يقتصر على نفس الفرد بل يمتد إلى المجتمع ليفرز العناصر الطيبة المخلصة من العناصر المنتشرة بالحق والمتظاهرة بالدين رياءً وسمعة يقول تعالى: .

﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا، أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله

أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا﴾[1].

هكذا تكشف الشدائد حقائق الرجال، وتفرز الناس إلى محورين، وتعكس التناقضات القائمة في حياتهم، وهذا لا يتحقق ولا يحصل إلا في ساحات الصراع.

وهناك جملة أخرى من الآيات تصور لنا كيف تهتز النفوس في ساحات الصراع، وكيف يحدث الزلزال في النفوس المريضة والقلوب العليلة، فتنقلب من الإيمان إلى الشك ومن التحدي إلى الانهزام، وكيف تنكشف هويات المنافقين مهما تكتموا على نفاقهم يقول تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا﴾[2].

إذن الصراع يكشف دخائل طائفة من الذين تلبسوا بالإسلام هذا من جانب ومن جانب آخر يظهر الصراع طائفة المخلصين الذين لم تهتز قلوبهم رغم كل الزلازل وإنما زادتهم إيماناً وتسليماً **﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾[3].**

فالذي كشف الظنون السيئة والزيغ والانحراف المخفي هو ميدان الصراع، وامتد الزلزال حتى شمل المؤمنين، وجعل مرضى القلوب ينشرون الأراجيف ويثيرون الرعب في قلوب المؤمنين والناس **﴿وإذا قالت**

---

(١) سورة الأحزاب: ١٨ ـ ١٩.
(٢) سورة الأحزاب: ٩ ـ ١٢.
(٣) سورة الأحزاب ٢٢.

طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا﴾[1].

وخلاصة الكلام: إن ساحات الصراع كشّاف عظيم لدخائل النفوس، وأصناف الناس وأجلى ساحة صراع كاشفة هي ساحة الطف كما سنرى لاحقاً.

(١) سورة الأحزاب: ١٣.

كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء

إذا أردنا أن نفهم المجتمع والتاريخ فيجب أن نأخذ عيّنة فيها مجمل ما يجري في ساحات الحياة، وخير عيّنة في ذلك معركة الأحزاب، ففي هذه المعركة ظهرت نقاط ضعف كانت مستورة في المسلمين سترتها عليهم حالة الأمن، فلما دخلوا ميدان الصراع الساخن برزت تلك النقاط واضحة جليّة، فظهر المنافقون على حقيقتهم لم يخفهم ولم يسترهم شيء، كما برز المؤمنون الصادقون في عقيدتهم.

وفي سورة الأحزاب تتجلى لنا حقيقة كانت خافية على الكثيرين وهي أن تأييد الله وفيوضاته لم تنزل على المؤمنين في حالة الرخاء والدعة والاسترخاء وإنما تنزل في حالة الشدة وميادين الصراع يقول تعالى: .

﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديرا﴾[1].

إذن نزول النصر، ورد الكافرين بغيظهم، وقذف الرعب في قلوبهم لم ينزل في ساحة الرفاه والرخاء وإنما ينزل في ساحات الشدة والقتال

(١) سورة الأحزاب: ٢٥ ـ ٢٧.

والصراع الدامي، فالانقلابات من الصعود والهبوط، والنصر والهزيمة والابتلاءات بالخوف، والنقص من الثمرات والأنفس يتم في جو المحن.

إن الصراع الحضاري بين الحق والباطل في مقطع من مقاطع التاريخ يمثل مساحة التاريخ، ويجسد السنن الإلهية الجارية في هذه الساحة، وما يجده الباحث في امتداد التاريخ الطويل، وفي عرض المجتمع العريق إنما هو مختزل ومصغر في ساحات الصراع في كل جانب من جوانب الحياة. أرأيتم قدح الماء لو تأملتم فيه لوجدتم فيه أغلب الخصائص المتوفرة في المحيطات الكبرى وفق قانون (التعويم) من أي العناصر تتركب؟ متى تتعوم؟ ما هي العوامل المؤثرة فيها؟ فأغلب قوانين المحيطات لو فكرنا بدقة لاستطعنا أن نقرأها في إناء صغير، حركة التموج التي تحدثها دفعة من الريح هو قانون الأمواج الكبرى في المحيطات الكبرى وإنما الفرق فرق كمي بين ما يدور في الإناء وما يدور في المحيطات، كذلك ساحة الصراع تختزل وتمثل مجمل القوانين في مساحة التاريخ الرحبة، وفي ساحة الحياة العريضة، مثلاً قانون الاختزال والتمثيل يجري في ساحة التاريخ في مقطع من مقاطعه، وهي تستطيع أن تمثل التاريخ كله تمثيلاً صادقاً وصحيحاً، فإذا استطعنا أن نحصل على شريحة زمانية ومكانية تمثل التاريخ لاستطعنا أن نقرأ كل التاريخ وأفضل ساحة تعكس لنا ذلك بجلاء ووضوح هي ساحة عاشوراء حيث تجسدت فيها حركة التاريخ والمجتمع، وتجلّت فيها سنن الله في التاريخ بصورة صادقة ودقيقة فعاشوراء عيّنة من الزمان والمكان مثلت مساحة التاريخ الطويلة وشملت المجتمع بكل فئاته، وجسدت صور الصراع بدقة رائعة، واختزلت صور الصراع على طول خط التاريخ البشري، ورأينا فيها أسباب وموجبات الصراع، كما برزت فيها أخلاق جند الرحمن وأخلاق جند الشيطان هذا الصراع الذي يشكل حتميّة من حتميّات التاريخ لا يمكن أن تخلو منه فترة تاريخية ولا يمكن أن يفلت منها إنسان ولذلك نرى صعود قوم وسقوط آخرين، وثورة الحسين خير شاهد ومثال على ذلك، فقد رأينا في حركة الحسين (ع) قوم رافقوه إلى العراق ثم تنصلوا عنه وسط الطريق لما عرفوا أن الحسين لا يحقق آمالهم

الدنيوية، ورأينا آخرين اهتزت ضمائرهم واستيقظت بنداء الحسين فعافوا دنيا عريضة واختاروا الشهادة معه، وفي هذه النهضة المباركة رأينا سقوطا وصعوداً وثباتاً وتزلزلاً واستبدالاً وانتقالاً من جبهة الحق إلى جبهة الباطل وبالعكس، أناس من أصحابه تراجعوا عنه، وآخرين من جبهة ابن زياد انتقلوا إلى صف الحسين واستشهدوا بين يديه. فساحة عاشوراء الضيقة حافلة بالأحداث طافحة بالعبر والدروس، كاشفة لخفايا النفوس، فهي مرآة صافية دقيقة عكست التاريخ وصورته تصويراً دقيقاً كاملاً. ولذا فالمؤمنون يجدون أنفسهم في مرآة عاشوراء، يقرؤون ضمائرهم ومشاعرهم واحساساتهم فيها ولذلك تراهم ينجذبون إليها بلا عناء ولا تكلف.

فعاشوراء إذن تكريس لسنة الله في خلقه فهي نافذة نطل منها على التاريخ، أرأيت صفحة الخارطة الصغيرة كيف نرى عليها أقاليماً واسعة، وتحدد مواقعها وأنهارها وجبالها وهضابها.

وإننا ولكي نفهم شيئاً ممّا علينا ينبغي أن نقوم بعمليتين.

١ ـ علينا أن نضعه تحت المجهر لنراه كبيراً ونكشف النقاط الخافية من تلك العيّنة خلية واحدة أو ذرة واحدة.

٢ ـ نختزل تلك العينة، ومن خلالها نستطيع أن نمثل الكلي منها كالخارطة المختزلة من واقع واسع، كذلك عاشوراء عملية اختزال لحركة التاريخ، والقوانين الموجودة فيه وهي نموذج متميز لأولياء الله يقفون بقلتهم في مواجهة أولياء الشيطان وفي الصراع الحاسم من التاريخ في المعركة الحاسمة يتقرر مصير الإسلام الذي كاد أن يقع أسيراً في أيدي سلاطين الجور والفساد فيشوهون وجهه المشرق ويقلبون حقائقه الناصعة.

في عاشوراء وقفتْ على ساحة الطف صفوة الصفوة وخلاصة أمة محمد (ص) وعلى رأسهم ريحانة رسول الله (ص) ومعه أهل بيته، وصفوة من أصحابه مقابل رؤوس الكفر والفساد والنفاق، وفي هذا التقابل لا يدري الناظر بماذا يحس من بون شاسع بين قمة القيم، وبين حضيض

الانحطاط، بين ذلك العروج الملكوتي والسمو الرسالي الذي مثله الحسين عليه السلام، وبين الهبوط والانحطاط الذي مثله بنو أميّة وأشياعهم عبيد الدنيا. نشعر بوجود نمطين من الناس مع الفاصل الكبير بين تلك القمة وذلك الحضيض بين البعد من الله تعالى والقرب منه، تلك الجبهتان وقفتا في مواجهة حقيقية، احداهما تدعو إلى الله، وتأخذ بأسباب العبودية من دعاء وتهجد وضراعة وخشوع تطلب وجه الله تعالى بأسمى آيات التجرد والاخلاص والفداء والتضحية والبذل والعطاء بصبر عجزت الملائكة أن تتحمله، والأخرى تمثل نهاية الارتكاس بالرذيلة بأبشع صورها وأحط درجاتها.

بون شاسع بين من يبذل دمه في سبيل الله عن اختيار ورضا وسرور وبين من يطلب الذهب والفضة والحكم والسلطان.

ويمكن للقارىء الكريم أن يتأمل في الفاصلة البعيدة بين هذين النموذجين اللذين جمعتهما ساحة كربلاء، احداهما تمثل أرقى نماذج الإنسان، والأخرى تمثل أبشع صور البهيمية، طرف يمثل آدم ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات عليهم جميعاً، وطرف يمثل نمروداً وفرعوناً وقارون وهامان وأبا جهل وأبا سفيان.

إذن معركة الطف مشهد غريب من نوعه، فالذين وقفوا مع الحسين لم يشكّوا ولو طرفة عين بأنهم على الحق على قلتهم، ولو قُتلّوا وقطّعوا، وأحرقوا وذروا في الهواء، والذين مع ابن زياد أضلهم الله على علم فالفرز الحقيقي تحقق في هذا الموقف الرهيب، فيوم عاشوراء اذن يوم فرقان. هذه الخصائص تبقى متميزة ليوم عاشوراء ويبقى عاشوارء نافذة نطل منها على التاريخ شريطة أن نعيها بكل أبعادها.

إن كل صراع بين الدعاة إلى الله وبين الدعاة إلى النار في كل حركة التاريخ بعد عاشوراء امتداد لعاشوراء فكل صراع من هذا النمط يمثل عاشوراء بدرجة من الدرجات وشعار كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء أصدق تعبير عن ذلك.

إن الزمان والمكان اللذين وردا في هذا الشعار يشكلان أكبر وعائين للحاضر والتاريخ، لأن الزمان والمكان لهما دور في صناعة الحضارة والتاريخ، فكل منهما يشكل قيمةً وفعلاً فيما يحتويه، فهما ليسا وعائين فقط وإنما لهما دور فاعل في صنع الحضارة، فليس عبثاً أن نجد في عصرنا أن الثورة الإسلامية أصبحت مدوية في كل بقاع العالم، وليس من عفوية الأحداث أن تصبح هذه المنطقة نقطة اشعاع لحركة الإسلام في عالمنا المعاصر فالزمان والمكان له دور في صناعة هذه الحضارة.

إننا نستنتج من ذلك كله ثلاثة أصول.

الأول: حتمية الصراع بين جبهتي الحق والباطل.

الثاني: استمرارية هذا الصراع إلى يوم القيامة.

الثالث: تمثيل عاشوراء لكل مراحل الصراع التاريخي بين الهدى والضلال.

العناصر المكونة لحركة التاريخ

أ ـ الصيغة الفعلية والدور الانفعالي لعاشوراء.

ب ـ الأحداث التي سبقتها ارهاصات كونية.

ج ـ النظرة الإسلامية في فهم التاريخ.



ينبغي أن ندرس عاشوراء من خلال الأفق التاريخي الواسع الذي يجري وفق سنن الله تعالى، هذه السنن التي قد تجلت بشكل واضح في معركة الطف، ولهذا وجدنا أن انشداد المؤمنين لعاشوراء أكبر من أي حدث آخر.

الصيغة الفعلية والدور الانفعالي لعاشوراء:

يوم عاشوراء يصنع التاريخ كما هو مرآة للتاريخ، وله دور انفعالي كما له دور فعلي، دور إنفعالي في ضمير الغيب، ودور فعلي في وجدان المؤمنين، وهذان الأمران يكشفان عن الدور الذي يملكه يوم عاشوراء في بناء التاريخ، وعن الدور الذي أناطه الله بالحسين وأدّخره له، إنّ التأمل في هذا يكتشفُ بُعداً جديداً مختفٍ في طوايا تـ اريخ النبوات.

فإننا نجد في الروايات والأحاديث أن الأنبياء وأوصياءهم كانوا يتحدثون عن كربلاء وما يقع فيها، وعن يوم عاشوراء وما يحدث فيه، وسوف نذكر إشارات ذكرها رسل الله تعالى حول عاشوراء فآدم ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين كلهم تحدثوا عن الحسين وما يحدث له في عاشوراء. كما تحدث أمير المؤمنين علي (ع) والمراجع التاريخية من الفريقين تذكر ذلك[1].

الأحداث التي سبقتها أو ستسبقها إشارات ·

لدينا ثلاثة أحداث تاريخية سبقتها إشارات مهمة وهي.

---

(١) راجع بحار الأنوار م ٤٤ ص ٢٤١ وما بعدها ـ كامل الزيارات ص ٦٧ اكمال الدين ص ٢٩٥. مجمع الزوائد م ٩ ص ١٨٥ وما بعدها.

الأول: مولد ومبعث الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، فقد حدثت قبل مولده ومبعثه عدة إشارات منها اطفاء نيران فارس، وسقوط أصنام قريش، وانشقاق إيوان كسرى.

الثاني: إستشهاد الحسين (ع) في كربلاء.

الثالث: خروج وظهور الإمام المهدي (ع) كما أخبر الرسول (ص) والأئمة الأطهار بما تظهر من علائم الظهور، وعلى هذا من حقنا أن نتسائل:

ماذا لحدث عاشوراء من شأن حتى يستحق كل هذا الاهتمام؟ إن الذي نفهمه، إن الله تعالى أدخر الإمام الحسين (ع) وأعدّه لشأن ذي أهمية كبرى هو يريده، وبهذا الشأن تعلقت مشيئة الله تبارك وتعالى قبل ميلاد الحسين (ع).

فعن أبي عبدالله (ع) إنّ جبرائيل نزل على محمد (ص) فقال: يا محمد إن الله يقرؤك السلام، ويبشرك بمولود يولد من فاطمة تقتله أمتك من بعدك، . ثم قال: يا محمد إن ربك يقرؤك السلام ويبشرك أنه جاعل في ذريته الإمامة والولاية والوصية فقال: قد رضيت»[1].

وعن نجي الحضرمي أنه سار مع علي (ع) وكان صاحب مطهرته فلما حاذى نينوى وهو منطلق إلى صفين فنادى عليّ: إصبر أبا عبدالله، إصبر أبا عبدالله بشط الفرات، قلت وما ذاك قال دخلت على النبي (ص) ذات يوم وإذا عيناه تذرفان قلت يا نبي الله أغضبك أحد ما شأن عينيك تفيضان؟ قال: بل كان عندي جبريل عليه السلام قبل قليل فحدثني: إن الحسين يقتل بشط الفرات، قال: فقال: هل لك أن أشمك من تربته؟ قلت: نعم. قال: فمد يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها فلم أملك عيني أن فاضتا»[2].

---

(١) بحار الأنوار م ٤٤ ص ٢٣٢.

(٢) مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٨٧ طبعة دار الكتاب العربي.

وعن عائشة قالت دخل الحسين بن علي رضي الله عنهما على رسول الله (ص) وهو منكب وهو على ظهره، فقال جبريل لرسول الله (ص): أتُحبّه يا محمد؟ قال: يا جبريل ومالي لا أحب ابني. قال: فإن أمتك ستقتله من بعدك، فَمَدَّ جبريل (ع) يده فأتاه بتربة بيضاء، فقال: في هذه الأرض يقتل ابنك هذا، واسمها الطف، فلما ذهب جبريل (ع) من عند رسول الله (ص)، خرج رسول الله (ص) والتزمه في يده يبكي فقال: يا عائشة إن جبريل أخبرني أن ابني حسين مقتول في أرض الطف، وأن أمتي ستفتن بعدي ثم خرج إلى أصحابه، فيهم علي وأبو بكر وعمر وحذيفة وعمار وأبو ذر رضي الله عنهم، وهو يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا رسول الله؟ فقال: أخبرني جبريل (ع) أن ابني الحسين يقتل بعدي بأرض الطف وجاءني بهذه التربة وأخبرني أن فيها مضجعه»[1] وعن شيبان بن محرم وكان عثمانياً. قال: إني لمع علي رضي الله عنه إذ أتى كربلاء فقال: يقتل بهذا الموضع شهيد ليس مثله شهداء إلاّ شُهداء بدر، فقلت بعض كذباته، وإذا رجلُ حمار ميت فقلت لغلامي خذ رجل هذا الحمار فأوتدها في مقعده وغيّبها، فضرب الدهر ضرباته فلما قتل الحسين بن علي انطلقت ومعي أصحابي فإذا جثة الحسين بن علي على رجل ذلك الحمار، وإذا أصحابه ربضةً حوله)[2].

وذكر شيخ الإسلام الحاكم الجشمي أن أمير المؤمنين (ع) لما سار إلى صفين نزل بكربلاء، وقال لابن عباس: أتدري ما هذه البقعة؟ قال لا. قال: لو عرفتها لبكيت بكائي، ثم بكى بكاء شديداً ثم قال مالي ولأل أبي سفيان ثم التفت إلى الحسين (ع) وقال صبراً يا بُنيَّ فقد لقي أبوك منهم مثل الذي تلقى»[3].

وقد كان الحسين (ع) يشير إلى ذلك ويصرح به لناصحيه بالرجوع،

---

(١) مجمع الزوائد ح ٩ ص ١٨٧.

(٢) نفس المصدر ص ١٩١ مقتل الحسين للخوارزمي م ١ ص ١٦١.

(٣) مقتل الحسين للخوارزمي م ١ ص.

فقد قال لمحمد بن الحنفية عندما نصحه بعدم الخروج:

(أتاني رسول الله (ص) بعدما فارقتك، فقال يا حسين أخرج فإن الله شاء أن يراك قتيلا».

فقال له ابن الحنيفية: إنا لله وإنا إليه راجعون، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذا الحال؟ قال: فقال له: قد قال لي: إن الله قد شاء أن يراهن سبايا وسلم عليه ومضى»[1].

وقال لأم سلمة: «وقد شاء الله عز وجل أن يرى حرمي ورهطي مشردين وأطفالي مذبوحين مأسورين مقيدّين وهم يستغيثون فلا يجدون ناصراً»[2].

ولما طلب منه عمر بن لوذان أن يرجع وصرح له عن مخاوفه، قال (ع) «ليس يخفى علينا الرأي وإن الله لا يغلب على أمره».

والمتأمل في هذه الروايات يدرك أن الحسين (ع) يمضي وفق خطة مرسومة في ضمير الغيب، ويمضي لشأن يريده الله تعالى، ومهما كان ناصحو الإمام صادقين في نصيحتهم فلن يستطيعوا أن يغيروا رأيه، أو يضعفوا عزمه، فقد استسلم لمشيئة الله إستسلاماً كاملاً.

إذن يوم عاشوراء يوم من أيام الله له شأن عظيم في مسيرة البشرية وصناعة تاريخها، وفداء هذا اليوم الحسينُ وأهلُ بيته وأصحابه.

النظرية الإسلامية في فهم التاريخ:

هناك جملة من النظريات المادية تنظر إلى حركة التاريخ نظرة جبرية

(١) نفس المهموم ص ١٦٤.

(٢) مقتل الحسين للمغرم ص ١٣٦.

حتمية وإن حركة التاريخ عندها لا تزيد على الحركة الآلية، وأن الإنسان يتحرك ضمن هذا المسير الحتمي، وهم يفهمون حركة التاريخ كما نفهم حركة الجهاز الميكانيكي.

ونحن نلاحظ في هذا التصور غياب العنصر الإنساني، فليس للإنسان دور فعال بل هو مسلوب الارادة، والاختيار وهو يتحرك حركة آلية، من دون أن يملك أيَّ قدرة على تقرير مصيره بل هو آلة مسخرة تجري وفق قوانين حتمية في حركته وفعله وسكونه!! الماركسية تؤمن بهذه النظرية على طريقة الأطروحة والطباق أو على طريقة قانون التناقض.

وهناك نظريات تؤمن بارادة الإنسان وتشركه في حركة التاريخ وتعتقد بازدواجية العالم لمحرك للتاريخ، فالعامل الإنساني يقف إلى جنب قانون العلية فهي تؤمن بدور الإنسان في حركة التاريخ ولكنها تنفي التدبير الإلهي والمشيئة الإلهية. وأصحاب هذه النظرية قد يؤمنون بالله ولكن إيمانهم في حدود الخلق، أي أن دور المشيئة الإلهية ينتهي بخلق الإنسان، والتاريخ يجري بمعزل عن إرادة الله تعالى ومشيئته، فالله خالق الكون والإنسان ولكن دوره ينتهي بالخلق فقط، أما المجتمع والتاريخ فيتحرك بالقوانين الذاتية الحتمية اضافة إلى ارادة الإنسان، وهذا ما يذهب إليه اليهود ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾[1].

اليهود يؤمنون بأن الله خالق الكون والمجتمع ، ولكنهم يعطلون دوره في تدبير حركة الكون والتاريخ فإنهم يقولون أن الله خلق الكون في ستة أيام وفي اليوم السابع أجازه وتخلى عنه.

أما النظرية الإسلامية فإنها تؤكد: أن الله خالق الكون والحياة فهو الذي يدبّر أمره فعندما خلق الله السماوات والأرض ﴿استوى على العرش

---

(١) سورة المائدة: ٦٤.

يدبّر الأمر ما من شفيع إلا من بعد اذنه﴾[1].

والعرش هو مقام التدبير، فلله عز وجل في خلقه مقامات مقام الخلق حيث أنه تعالى خلق الخلق في ستة مراحل ثم سيطرَ على هذا العالم ليدبر أمره ﴿ثم استوى على العرش يدبر الأمر﴾. والفاصل بين الخلق والتدبير ليسَ فاصلاً زمانياً، وإنما هو فاصل مرحلي أي أن مرحلة الخلق تسبق مرحلة التدبير، فالاستواء على العرش تعني الهيمنة والسيطرة لتدبير وادارة شؤون الكون من الذرة إلى المجرة وفق السنن والقوانين التي وصفها تعالى وليس المقصود هو التسيير الجبري.

---

(١) سورة يونس: ٣.

أسس حركة التاريخ

والمذهب الإسلامي يقيم حركة التاريخ على ثلاثة أسس: قانون العلية، وارادة الإنسان، والتدبيرالإلهي. ونستعرض هذه الأسس بشيء من التفصيل فيما يلي.

١ ـ قانون العلية:

وهو القانون القائل أن لكل معلول علة أو أنّ لكل شيء سبباً، وهو مبدأ أساسي من المبادىء العقلية الضرورية، ولولاه لما أمكن اثبات شيء من نظريات العلم وقوانينه، ولما صح الاستدلال بأي دليل كان في مختلف مجالات المعرفة البشرية[١].

إن في المجتمع قوانين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل وهي التي عبر عنها القرآن بسنن الله تعالى وهي طريقته، ﴿سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾[٢] ﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾[٣].

---

(١) لتوضيح ذلك راجع فلسفتنا للشهيد الصدر ص ٣٠٢ ـ ٣٠٤.
(٢) سورة الفتح: ٢٣.
(٣) سورة الاسراء: ٧٧.

﴿سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾[1].

فسنة الله تعالى سنة جارية حتمية لا تتوقف أبداً، ونحن نؤمن بهذه السنن ولكن لا كما يؤمن الماركسيون بها بطريقة عمياء، بل في هذه السنن تتجسد حكمة الله تعالى في خلقه وجريان مشيئته تعالى فيهم، والقرآن الكريم يؤمن بحتمية هذه السنن وأنها قدر جاري لا يمكن لأحدٍ خلخلته قال تعالى:

﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدورا﴾[2].

﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وأن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾[3].

فإن يعودوا تعود عليهم سنة الأولين وهي السنة التي جرت في الأولين، وهي سنة نافذة لا تتخلف أبداً ولا خلاص منها ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾[4].

إن القرآن الكريم في الوقت الذي يعترف بهذه القوانين، ينظر إلى قانون العلية من خلال نظريته الشمولية التوحيدية هذا القانون أوجده الله تعالى، فهو تعالى مسبب الأسباب، فالسنن لا تجري بمعزل عن إرادته جلت قدرته ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾[5] ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾[6].

إن قانون العلية الحتمية دائر في المجال المحسوس في المجتمع والتاريخ كالتخلف ينشأ من الجهل، وكالعلاقة بين التخلف الحضاري

---

(١) سورة غافر: ٨٥.
(٢) سورة الأحزاب: ٣٨.
(٣) سورة الأنفال: ٣٨.
(٤) سورة فاطر: ٤٣.
(٥) سورة هود: ١٠٧.
(٦) سورة الرعد: ٣١.

والجهل، وكالعلاقة بين العرض والطلب وهبوط الأسعار.

النظريات المادية تفهم القانون بدائرة المحسوسات أما القرآن الكريم فيتجاوز الماديات إلى المعنويات مثلاً كالعلاقة بين العمل والجزاء، فلا تفهم النظريات المادية علاقة العمل بالجزاء. أما القرآن الكريم فيربط بين الجزاء والعمل يقول تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾[1] ويقول تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾[2] فهنا علاقة بين الفتنة والظلم مع أن الظلم في دائرة واسعة والفتنة في دائرة خاصة. ومن عجب أن لا يوجد تكافىء بين الدائرتين، فالدائرة التي تشغل دائرة الظلم دائرة صغيرة محدودة، ولكن تأثيرها يمتد إلى كل المجتمع، فيصاب بالظلم الجميع ولا يسلم منه أحد فهذه سنة إلهية أن دائرة الظلم الصغيرة إذا لم يقاومها المجتمع، ويعمل على تحجيمها واجتثاثها فسوف تعمهم جميعاً.. ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾[3]ويقول تعالى: ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾[4] فبظلمهم خوت بيوتهم، فظاهره الخواء والخراب متلازمة مع حالة الظلم. ويقول تعالى.

﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾[5] فسبب العذاب هو الفسق. وبالعكس ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[6] كما هي العلاقة بين التقوى والبركات التي ينزلها الله على المجتمع؟ النظريات لا تستطيع أن تفسر ذلك.

---

(١) سورة فاطر: ٤٣.
(٢) سورة الأنفال: ٢٥.
(٣) سورة يوسف: ١٠٩.
(٤) سورة النمل: ٥٢.
(٥) سورة البقرة: ٥٩.
(٦) سورة الأعراف: ٩٦.

ويقول تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾[1] ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا﴾[2] ففي النظرية الإسلامية العلاقة بين التقوى وتيسير الأمور متلازمة تلازم الحركة والحرارة، وهذه العلاقة غير المرئية مما تخفى بشكل مطلق على الذهنية المادية، والقرآن الكريم يسلط الضوء على هذه العلاقة بشكل واسع.

فسنن الله إذن مرآة عاكسة يرى الإنسان فيها نفسه ويرى عمله ومجتمعه، ويرى سير البشرية وهي تجري ضمن نظام دقيق فيه ترابط وتلازم بين العمل والجزاء في وحدات مترابطة. بهذا الفهم يكون للتاريخ دلالة إنسانية وإما إذا فهمنا التأريخ بأنّه شتات أحداث عفوية، ومن خلال تراكمها يتكون التاريخ والمجتمع. بهذا الفهم تسقط قيمة التاريخ وفاعليته لفقدانه الدلالة الإنسانية وعلى هذا التصور قامت المادية الحديثة.

أما الفهم القرآني للأحداث التاريخية فيختلف اختلافاً كلياً عن هذا الفهم. فالتاريخ في القرآن هو تكريس لأصول ثابتة في حركة المجتمع البشري. فالتاريخ الذي تقرؤه في قوم هود وصالح ونوح وإبراهيم وإسماعيل ومحمد صلوات الله عليهم جميعاً. تقرؤه من خلال قانون مقنن لحركة المجتمع. وبهذا يخرج من الحالة اللاواعية فتكون له دلالات وعبر وعظات. فنرى أنفسنا فيه حين نقرأ الأجيال التي سبقتنا ﴿أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآياتٍ أفلا يسمعون﴾[3].

فهذه الأهرام والقلاع المهدمة والبيوت الخاوية مرآة يتعظ فيها الإنسان ويجد في طواياها سنن الله تعالى ويستل منها الدروس والعبر، ويصور لنا هذه الحالة أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: (ولو

---

(١) سورة الطلاق: ٢.
(٢) سورة الطلاق: ٤.
(٣) سورة السجدة: ٢٦.

استنطقوا عنهم عرصات تلك الديار الخاوية والربوع الخالية، لقالت ذهبوا في الأرض ضُلّالا، وذهبتم في أعقابهم جُهالا تطأون في هامهم، وتستنبتون في أجسادهم وترتعون فيما لفظوا، وتسكُنون فيما خرّبوا وإنما الأيام بينكم وبينهم بواك ونوائح عليكم»[1].

ويقول (ع) في وصيته لولده الإمام الحسن (ع):

«أحي قلبك بالموعظة. إلى أن يقول: وحذّره صولة الدهر وفحش تقلب الليالي والأيام، وأعرض عليه أخبار الماضين وذكّره بما أصاب من كان قبلك من الأولين، وسر في ديارهم وآثارهم فانظر فيما فعلوا، وعما انتقلوا وأين حلوا ونزلوا[2].

٢ ـ العامل الثاني من مكونات التاريخ: إرادة الإنسان:

للإنسان دور مهم في حركة التاريخ، ويختلف هذا الدور في النظرية الإسلامية عن تصورات النظريات المادية التي تؤمن بالحتمية التاريخية والتي تجعل الإنسان عنصراً منفعلاً وقع تحت تأثير الحتمية العلية (الجبرية)، وليس عنصراً فاعلاً ومؤثراً. أما الإسلام فقد جعل دور الإنسان فاعلاً ومؤثراً في حركة التاريخ، والقرآن يقرر أن الإنسان هو الذي يوجه حركة التاريخ..

أما كيف نمزج بين هذين العنصرين الحتمية العلية وارادة الإنسان وبتعبير آخر كيف يمكن المزج بين الحتمية والحرية؟.

نقول: صحيح إن الإنسان لا يستطيع أن يفلت من آثار ونتائج عمله، ولا يمكنه تجاوزها، ومع ذلك فهو حر مختار. والسر في هذا أن يحقق النتائج التي يصبوا إليها ولكنه في نفس الوقت يخضع لتلك النتائج ولا يستطيع أن يفر منها مثلاً: مرة يشرب السم، وأخرى يأكل الطعام فعلى كل

---

(١) نهج البلاغة خ ٢٢١ [المعجم المفهرس].
(٢) نهج البلاغة خ وصيته لولده الإمام الحسن (ع) كتاب رقم/ ٣١.

منهما تترتب نتائج حتمية لا يستطيع أن يتخلص منها فللسم نتائج وآثار مختلفة عن نتائج وآثار الطعام أو كالذي يرمي نفسه من شاهق فإنه لا يستطيع أن يفلت من آثار الجاذبية، ولا يمكن أن نبرئه من جريمة القاء نفسه.

فإذن الإنسان لا يستطيع أن يتحكم بالنتائج وإنما يتحكم بالمبادىء وآثار مبادىء عمله هو يتحمل تبعاتها، والذي يستطيع أن يتحكم بالمبادىء يمكنه أن يتجنب النتائج المهلكة، ولذا يروى عن أمير المؤمنين (ع) أنه عدل من عند حائط مائل إلى مكان أكثر أماناً. فقيل له: يا أمير المؤمنين: تفر من قضاء الله؟ فقال (ع) «أفر من قضاء الله إلى قدر الله عز وجل. يقول المحدث المجلسي: المراد بقدر الله هنا حكمه وأمره أي إنما أفر من القضاء بأمر الله تعالى»[1].

ففي هذه القضية لله قضاءان: الأول الجلوس إلى جانب جدارٍ آيلٌ إلى السقوط وهو قضاء حتمي، والثاني يفرُ إلى حائط لا يسقط، فكأنَّهُ يقول أنا أستطيع أن أتحكم بمبادىء العمل لا بنتائجه فهو يخرج من دائرة قضاء إلى دائرة قضاء آخر. هكذا استطاع الإسلام أن يحل التعارض بين حرية الارادة وبين الحتمية التاريخية فجعل الإنسان هو الموجه لحركة التاريخ بدون أن يخرج منه دائرة العلية وربما نجد هذا المعنى في الآيتين اللتين تحددان دور الإنسان في تغيير مستقبله يقول تعالى: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمةً أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[2].

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[3].

ففي الآيتين تغيّران: تغيّرٌ يفعله الله بالإنسان وتغيّر يفعله الإنسان بنفسه.

---

(١) بحار الأنوار ج ٥ ص ١١٤ ح ٤١.
(٢) سورة الأنفال: ٥٣.
(٣) سورة الرعد: ١١.

الأول: (تغيير الإنسان) يجري بموجب حركة الإنسان وارادته.

والثاني: خاضع لقانون العلية، وهذا التغيير ينسبه القرآن إلى الله تعالى. ولكن التغيير الأول مقدمة وسبب للتغيير الثاني أي يعتبر الإنسان نفسه خاضعاً لسنن الله وسائراً وفق أحكام الله، ولكن ذلك بكامل اختياره وارادته، فالإنسان قد منحه الله تمام الحرية في اختيار مبادىء العمل، ولكنه ليس حراً في اختيار النتائج لأن النتائج خاضعة للمبادىء.

قال الإمام الصادق (ع) لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين، قال: قلت ما أمر بين أمرين؟ قال: مثل ذلك مثل رجل رأيته على معصية فنهيته فلم ينتهِ ففعل تلك المعصية فليس حيث لم يقبل فتركته كنت أنت الذي أمرته بالمعصية؟»[1].

وروى الكليني عن أبي عبدالله (ع) «أنه سأله رجل: أجبر الله العباد على المعاصي؟ قال لا؛ فقال: ففوض إليهم الأمر؟ قال: لا، قال: لطف من ربك بين ذلك»[2].

يقول المحدث المجلسي: «وأما الأمر بين الأمرين فالذي ظهر مما سبق من الأخبار هو أن لهداياته وتوفيقاته تعالى مدخلاً في أفعال العباد بحيث لا يصل إلى حد الالجاء والاضطرار كما أن سيداً أمر عبده بشيء يقدر على فعله، وفهّمه ذلك، ووعده على فعله شيئاً من الثواب، وعلى تركه شيئاً من العقاب فلو اكتفى من تكليف عبده بذلك ولم يزد عليه مع علمه بأنه لا يفعل الفعل بمحض ذلك لم يكن ملوماً عند العقلاء لو عاقبه على تركه، ولا يقول عاقل بأنه أجبره على ترك الفعل، ولو لم يكتف السيد بذلك وزاد في ألطافه والوعد باكرامه، والوعيد على تركه وأكد ذلك ببعث من يحثه على الفعل ويرغبه فيه، ثم فعل بقدرته واختياره ذلك الفعل

---

(١) بحار الأنوار م ٥ ص ١٧.

(٢) أصول الكافي ج ٢ ص ١٥٩ ح ١١.

فلا يقول عاقل بأنه أجبره على ذلك الفعل.»[1].

وعلى كل حال فإن القرآن يعتبر دور الإنسان مهماً في حركة التاريخ فنحن نستطيع أن نفهم التصور القرآني من خلال فهمنا لحرية الإنسان واختياره وتحمله للمسؤولية ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾[2] فإن حرية الاختيار تستبطن المسؤولية، فالقرآن يحمل الإنسان نتائج عمله ﴿وأنّ ليس للإنسان إلا ما سعى﴾[3].

﴿ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾[4] وقال تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾[5].

بقي أن نشير: في الوقت الذي يُعتبر الإنسان حراً في صناعة التاريخ إلا أنه يعتبر محكوماً لمشيئة الله تعالى﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾[6] .

٣ ـ العامل الثالث: التدبير الإلهي:

لا يمكن أن نتصور أن حركة التاريخ يمكن أن تتكامل وتستقر بتأثير العاملين المتقدمين فهما عاجزان عن تحريك التاريخ، ولو أن الأمر فقط بهما أنيط لاختل توازن الحضارة البشرية فلا بد من وجود عامل ثالث حاكم على العاملين السابقين. هذا العامل هو التدبير الإلهي والرعاية الإلهية، وهو أعلى وأشمل واحكم وأقدر على التحريك بل هو المحرك والمقنن للعاملين المتقدمين، ولو أن التاريخ انعدمت فيه الرعاية الإلهية

---

(١) بحار الأنوار م ٥ ص ٨٣.
(٢) سورة الصافات: ٢٤.
(٣) سورة النجم: ٣٩.
(٤) سورة الزمر: ٧٠.
(٥) سورة البقرة: ١٣٤.
(٦) سورة التكوير: ٢٩.

لأصاب الإنسان الطغيان ولجرَّ البشرية إلى الهاوية السحيقة ﴿ولو اتبع الحق أهوائهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾[1].

وقد رأينا وقرأنا كيف أدى الطغيان البشري إلى هلاك أمم ودمار شعوب، وسقوط حضارات عريقة.

والحقيقة التي نكتشفها أن الحتمية التاريخية وارادة الإنسان لا يستطيعان أن يحركا التاريخ.

والمدارس الإلهية بين من يحكِّم قانون العلية (الجبرية) وبين من ينفي دور الإنسان. وهنا نشير إلى وجود مرحلتين في الصنع الإلهي.

أ ـ مرحلة الخلق والتقدير:

وهذه المرحلة مشار إليها في قوله تعالى على لسان موسى حينما سأله فرعون عن ربه قال موسى ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ وفي سورة الأعلى﴾ ﴿الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى﴾ وهذا الخلق والتقدير داخل في كل ذرة من ذرات الكون.

ب ـ مرحلة التدبير:

إن الله خلق الكون وقدّره ثم هيمن عليه ليدبر أمره. ونماذج التدبير كثيرة منها: سنة المحق، وسنة العذاب، والنقمة، وسنة بعث الأنبياء وسنة الرزق وسنة الغضب، والجدب، وسنة الخذلان والحرمان وهذه السنن خارجة عن دائرة الخلق والتقدير، فالله يهدي من يريد ويرزق من يشاء ويهلك من يخرج عن هذه السنن.

---

(١) سورة المؤمنين: ٧١.

نماذج من التدبير الإلهي:

يقول تعالى: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾[1].

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتعز مَنْ تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾[2].

﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لَبَغَوْا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير﴾[3].

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾[4].

وتقرأ آيات أخرى تجمع بين مرحلة التكوين والتقدير ومرحلة التدبير يقول تعالى:

﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد اذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون﴾[5].

إن مسألة الهيمنة والتدبير الإلهي مسألة مهمة وحساسة تحتاج إلى تدبر دقيق، وتأمل عميق، فهي التي حفظت المجتمعات البشرية من السقوط، والتصورات الجاهلية قائمة على عكس هذا التصور.

---

(١) سورة الأنعام ١٧.
(٢) سورة آل عمران: ٢٦.
(٣) الشورى: ٢٧.
(٤) سورة الطلاق: ٣.
(٥) سورة يونس : ٣.

مسؤولية الحسين في مواجهة الردّة الحضارية

إن الله تعالى يوجه ويحرك تاريخ البشرية، ويدبر حياتها على وجه الأرض، وقد يصل الإنسان إلى طريق مسدود فيفتحه الله تعالى، وقد تصل البشرية إلى حافة السقوط فتدركها رحمة الله فتنقذها من التردي في الهاوية يقول تعالى ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾[1].

فمن حكمة تدبيره تعالى أن يدّخر للمنعطفات الخطيرة رجالاً يرجعون البشرية إلى جادة الصواب وينقذونها من الهلاك والدمار. وساحة الطف هي إحدى المنعطفات التي لا نظير لها في التاريخ الإنساني فضلاً عن الإسلامي، والحسين وأصحابه كانوا ذخيرة الله تعالى احتفظ بهم لانقاذ دينه ورسالته من التحريف، وأمة نبيّه من الانحراف.

ولنتسائل ماذا حدث في عام واحد وستين من الهجرة وكيف تدخلت المشيئة الإلهية لحفظ المسيرة الإسلامية من الانحراف؟؟.

لقد أحدث الإسلام ثورة في القيم والأخلاق والذوق والعلائق الاجتماعية بل ثورة في كل شؤون الإنسان وتصوراته، ولقد قال رسول (ص) يوم فتح مكة (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض).

فكأنما يقول: إن مسيرة الإنسان قد تغيرت ورجع هذا الإنسان إلى

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.

فطرته التي فطره الله عليها. وقال (ص): (ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي) وإلى جنب هذه الثورة أحْدَثَ ثورة أخرى في المواضع الاجتماعية حيث رفع فئة كانت معزولة عن ميدان الحياة، وعزل فئة أخرى كانت تدير المجتمع، فالإسلام مكّن فئة مستضعفة من الناس في هذا الوسط الجديد، وعزل الفئة التي كانت تملك أزمة الأمور، وكانت الثورة الثانية حماية للثورة الأولى (ثورة القيم)، وبقدر ما كان رسول الله (ص) يهتم بالانقلاب الأول كان يهتم بالانقلاب الثاني ويقدر ما كان يعزل الطبقة المستبدة التي كانت مهيمنة كان يُصّعد المكانة الاجتماعية للطبقة المؤمنة التي كانت معزولة. هذه الثورة المزدوجة: ثورة القيم وثورة في المواقع حدثت بتخطيط ورعاية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولنرى ماذا حدث بعد رسول الله (ص)؟.

لقد حدثت انتكاسة مخيفة في الانقلاب الذي كرّس رسول الله (ص) حياته كلها من أجله حيث أن الفئة التي عزلها رسول الله عادت إلى مواقعها مرّة أخرى بعد غيابه بقليل. والذين حاربهم رسول الله وأبعدهم استرجعوا كُلَّ شيء بعد وقت قصير من رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فإذا علمنا أن هذه الانتكاسة قد حدثت والدعوة لم تزل بَعْدُ غضةً طريةً لم تتمركز في المجتمع. ثم إن هذه الفئة استعادت مواقعها في المجتمع الجديد وسيطرت عليه من موقع الشرعية الإسلامية يعني من موقع خلافة رسول الله (ص)، والأخطر من ذلك أنها إعتلت عرش الخلافة وهي تحمل نفس الذهنية والنفسية التي حاربت بها رسول الله(ص) !! في وقت كانت الدعوة تمر في مضيق من مضائق التاريخ وفي هذا المضيق تلخصت كل مسيرة الأنبياء ما دام الإسلام يمثل خلاصة رسالات السماء، فأي انتكاسة يصاب بها الإسلام تصاب بها جميع رسالات الأنبياء، وإذا انحصر الإسلام في هذا المضيق التاريخي فسوفَ تضيع جميع جهود الأنبياء. إذا عرفنا هذه الحقيقة سنعرف مقدار الخطر الذي تعرض له الإسلام في هذه الساحة، وكان الحسين عليه السلام يرقب هذا التحرك بكل تفاصيله،

ويدرك مدى خطورة المرحلة المحدقة بالإسلام، فيزيد بن معاوية يتزعم الخلافة، ويعمل لتغير رسالة الله من خلال الشرعية الإسلامية، باسم خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله، أضف إلى أنّ المسلمين أصابهم الخدر والغفلة نتيجة قلب المفاهيم الإسلامية عن معانيها الحقيقية، حيث كثر الوضّاعون على رسول الله (ص)؛ وأُبعد الصالحون، وحوربوا في أرزاقهم، وصُفِيَّ الكثير منهم تصفية جسدية، مع العمل الجاد على اعادة المفاهيم الجاهلية وفق خطة مدروسة. وهكذا ظهرت مذاهب فكرية ضالة تتبنى نظريات مخالفة لصريح الكتاب والسنة كمذهب المرجئة الذي يرىٰ أن الايمان أمرٌ قلبي وليس للمؤمن أن يعبر عن إيمانه بشيء وكان شعارهم: (لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة) وقالوا: (الإيمان هو الاعتقاد بالقلب، وإن أعلن الكفر بلسانه، وعبد الأوثان ولزم اليهودية والنصرانية في دار الإسلام، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل من أهل الجنة».

ومن هنا، فقد وفِّقَ هذا التفكير إلى درجة كبيرة، فإن حكام بني أمية مؤمنون على كل حال رغم كل ما يعملونه من جرائم..!!

كما تبنى الحكام الأمويون مذهب الجبر الذي يقضي بأن الإنسان مجبر مسيّر من قبل الله تعالى، وإن الحكم الجائر هو من تقدير الله، والخروج عليه خروج على ارادة الله، وقد استغل هذا المعنى الوصوليون من الشعراء والقصاصين والمشعوذين من علماء البلاط.

كل ذلك واجهه الحسين بمرارة وشدة، وقد أدرك أن دين الله سيحرّف تحريفاً كاملاً إن لم يكن له دور فعال في مواجهة هذا التيار، وأدرك بأن التصحيح وحفظ الرسالة لا يمكن أن يحدث بالوعظ والارشاد، وطرح المبادىء السليمة. فإن القاعدة الفكرية للمجتمع أصبحت مناقضة بصورة كلية لروح الإسلام، ولا يمكن أن يُوقف هذا التيار إلا الدم، ولا يهز ضمير الأمة ويوقظها من سباتها العميق إلا دم رسول الله (ص): هذا في الوقت الذي كان يشعر بأنه وريث رسول الله (ص) بل جميع رسل الله،

وأنه المسؤول الأول عن انقاذ دين الله وأمة رسول الله من مخالب الطغاة. ولذا قال لأمير المدينة الوليد بن عتبة حينما دعاه لبيعة يزيد:

«أيها الأمير إنّا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر قاتل النفس المحترمة معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله ولكن نُصبح وتُصبحون وننظر وتنظرون أيّنا أحق بالخلافة والبيعة»[1].

وهـذه الكلمـة عميقـة ودقيقـة ومعبـرة وذات دلالـة بعيـدة المـدى فقوله (ع) (بنا فتح الله وبنا ختم) توكيد بأنه حلقة الوصل بين أول رسالات السمـاء وخـاتمتهـا وأنـه امتـداد لأنبيـاء الله ورسلـه، وأن مسيـرة الأنبيـاء محصورة بشخصيته، وبقائها مقرون بتحمّله لهذه المسؤولية العظيمة وتضحيته الجبارة. وكأنّه يريد أن يقول: إنَّ يزيد يريد أن يهدم ما بناه رسول الله، وأن مبايعته اعادة للجاهلية بأبشع صورها، وهذا لا يمكنني إمضاءه بأي حال من الأحوال.

ونعود مرة أخرى لنلاحظ ما حدث في الساحة الإسلامية؟.

وماذا صنع الحسين؟ ولأي مهمة أدخره الله تعالى؟ .

الذي حدث أمران:

١ ـ إن الأمة في هذه الفترة من تاريخها تعرضت لردة حضارية، لفقدانها الوعي والارادة.

٢ ـ إن الخط الجاهلي استعاد موقعه من موقع الشرعية الإسلامية باسم خلافة رسول الله (ص)، واستغل كافة امكانيات المسلمين لتحقيق أهدافه.

هذان الأمران حدثا في تاريخ المسلمين، والذي قام به الحسين في ساحة الدعوة بعد هذا الانحراف وما سبقه من تحريف للقيم هو حركة

---

(١) مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرم ص ١٣١.

مأساوية استطاعت أن تسلب الخلافة الأموية شرعيّتها، وأن تعيد للمسلمين وعيهم وارادتهم وتُحيي ضمائرهم، ولم يكن ليحدث من ذلك شيء لولا تحرك الحسين (ع) المأساوي، ولم يكن عمل الحسين (ع) عملاً عسكرياً وإنما كل همه تحقيق أمرين وهما.

١ ـ تحرير ارادة الأمة الإسلامية.

٢ ـ انقاذ الإسلام واخراجه من قصور الخلفاء بسلب الشرعية عنهم.

في النقطة الأولى يجب أن نعرف أن الطغاة يستعملون سلاحين للتغلب على الأمة هما سلاح الارهاب، وسلاح الافساد من أجل تحطيم شخصية الأمة ومسخ هويتها، وبذلك يسلبون منها وعيها وارادتها، اللّذان هما من أهم مستلزمات الحركة، فعندما تفقد الأمة وعيها وارادتها تصبح قطيع غنم مستسلم لرعاته، فيرضى بالواقع الفاسد ويتكيف معه حتى في ذوقه وأخلاقه، وتفقد الأمةُ ثقتها بنفسها. وهذا ما سلكه فرعون مع قومه كما يتبين ذلك في قوله تعالى: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾[1] (واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه، فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها، ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة ومن ثم يسهل سحقهم ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين!)[2].

ففرعون وهو نموذج من نماذج الطغاة استطاع أن يمسخ شخصية الأمة بالارهاب والافساد، وهذا ديدن كل أئمة الظلال يسلبون من الناس ارادتهم ويجعلونهم ذا خفة وطيش وأهواء. فلا يعودون يدركون ماهيّة وجودهم، وبذلك يأخذون منهم الطاعة والولاء متى شاؤوا. وهذه الخفة

---

(١) سورة الزخرف: ٥٤.

(٢) في ظلال القرآن م ٧ ص ٣٤٠.

والطيش تجعل الأمة حطاماً لا تهتم بكرامتها وعزتها فترى الطغاة يعتدون عليها، ورغم ذلك يخضعون لهم ويطيعونهم، وعند ذلك تتحول الأمة إلى حطام وانقاض ودمى متحركة لا روح فيها، فيتحكموا بها كيفما يحلوا لهم، ويتحول المجتمع إلى قطيع من المتزلفين، وينقلب الوعي في الأمة في الاتجاه الذي يريده الطغاة، وبهذا تكتمل عملية المسخ وينشطر المجتمع إلى شطرين.

١ ـ الطغاة المستكبرون المتجبّرون الذين يستعبدون الناس ويضعون أنفسهم في مقام القدرة والسيادة والجلالة، فيفسدون في الأرض متى شاؤوا، ويحمي هؤلاء الطغاة طائفة من النفعيين والوصوليين الذين يعبر عنهم الإسلام بـ (أعوان الظلمة) وهؤلاء هم الذين يحمون عروش الفراعنة ويصبحون سيوفاً فتاكة للظالمين، يحوطونهم ويشيرون عليهم بزيادة الظلم ويثيرون حفيظتهم ضد الآخرين ويوافقونهم دائماً على نزواتهم وشهواتهم[١].

٢ ـ الطبقة المستضعفة: وهذه الطبقة مسلوبة الوعي والارادة لا تملك فكراً ولا رأياً، ولا تدرك سر وجودها، ولا تحس بكرامتها يحرّكها الظالم كيف يشاء (ربط يدها به لا عقلها). ثم يقول السيد الشهيد الصدر (وأما هذه فلم تعد أناساً وبشراً يفكرون ويُبادرون لكي يستطيعوا أن يحققوا لوناً من ألوان الابداع على هذه الساحة، قال سبحانه: ﴿وقالوا ربنا إنا اطعنا ساداتنا وكبرائنا فأضلونا السبيلا﴾[٢] «فلا يوجد في كلام هؤلاء ما يشعر بأنهم يحسون بأنهم مظلومون.»[٣].

ويعبر القرآن عن أسلوب الطغاة لتكوين هذه الطبقة بتعبرين الأول (الاستخفاف) وهو عملية سلب الإنسان وعيه وارادته حتى يصبح كخشبة عائمة على الماء. والتعبير الثاني الاستضعاف وهو عملية استدراج يقوم بها

---

(١) المدرسة القرآنية للسيد الشهيد الصدر بتصرف.
(٢) سورة الأحزاب: ٦٧.
(٣) المدرسة القرآنية للسيد الشيهد الصدر بتصرف.

الحكام بحيث يسلبون من الناس القدرة على التميز بين الحق والباطل حتى يصبحوا همجاً رعاعاً «يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق»[1] يقول السيد الشهيد الصدر (رض) هؤلاء الهمج الرعاع الذين ينعقون مع كل ناعق تحاول الفرعونية أن توسع منهم، وكلما توسعت هذه الفئة أكثر فأكثر دفعت المجتمع نحو الدمار خطوة بعد خطوة لأن هذه الفئة لا تستطيع بوجه من الوجوه أن تدافع عن المجتمع إذا حلت كارثة في الداخل أو طرأت كارثة في الخارج»[2].

فهذه الطبقة تتحول إلى قطيع مستسلم، مبرر للواقع الفاسد ومبرر لرغبات المستكبرين، وتصبح هذه الطبقة أداة طيعة لتنفيذ ما يطلبه الأسياد وبذلك يكونوا مصداقاً لقوله تعالى ﴿ختم الله على قلوبهم﴾[3] ولانقاذ هؤلاء المستضعفين ينبغي أن تعيد لهم وعيهم وإرادتهم.

وقد واجه الإمام الحسين (ع) حالة متخلّفة جداً في الواقع السياسي والاجتماعي مكنت بني أمية من مسخ هوية المجتمع مسخاً كاملاً..وأسوء من هذا أن القدرة والقوة إلتي منحها الإسلام للأمة تحولت قوة للقضاء عليه فصار الإسلام يحارب بسيف الإسلام، حيث تحول الإسلام من يد حملة الدعوة إلى الله إلى يد حملة لواء الضلال. والحسين (ع) يشير إلى هذه الردة فيقول:

«سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم فأصبحتم ألباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم»[4] فالحسين (ع) يعبر عن هذه الانتكاسة الحضارية التي تعرضت لها الأمة بسيف يُشهر بوجه الإسلام حيث عادت القوة التي مكنهم الإسلام منها بيد أعدائه، ولذلك لما التقى الحسين (ع)

---

(١) نهج البلاغة قصار الحكم: ١٤٧.

(٢) المدرسة القرآنية للشهيد الصدر بتصرف.

(٣) سورة البقرة: ٧.

(٤) مقتل المقرم ص ٢٣٤.

في طريقه إلى العراق بالفرزدق قال الفرزدق كلمته المشهورة «سيوفهم عليك وقلوبهم معك» وهو تعبير دقيق عن حالة التردي التي وصلت إليها الأمة، حيث إنها تتحرك على خلاف قناعاتها وارادتها فإن القلوب إذا تخالفت مع السيوف أصبحت الأمة على مشارف الهلاك، قلوبهم مع الحسين وسيوفهم تقطع أشلائه.

ونحن نلاحظ أن الأمة عندما تتعرض إلى ردة حضارية تصبح منكوسة القلب، ففي القلب بؤرتان تتبادلان المواقع بؤرة الولاء وبؤرة البراءة، وعندما تتحول الأولى إلى مكان الثانية أو بالعكس فقد انتكس القلب، وهذه الانتكاسة لا علاج لها، والحسين (ع) أكد في خطبته الثانية أن موطن البراءة تحول إلى موطن الولاء وتطابقت السيوف مع القلوب.

التحول الخطير الذي حدث
في الأمة في عصر الحسين (ع)

روى المؤرخون أن الحسين (ع) ركب فرسه وأخذ مصحفاً ونشره على رأسه ووقف بازاء القوم وقال: يا قوم إن بيني وبينكم كتاب الله وسنة جدي رسول الله (ص).

ثم استشهدهم عن نفسه المقدسة وما عليه من سيف النبي (ص) ولامته وعمامته فأجابوه بالتصديق، فسألهم عما أقدمهم على قتاله قالوا: طاعة للأمير عبيدالله بن زياد فقال (ع):

تباً لكم أيتها الجماعة وترحا أحين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين سللتم علينا سيفاً لنا في ايمانكم وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم فأصبحتم ألباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم فهلا لكم الويلات! تركتمونا والسيف مشيم والجأش طامن، والرأي لما يستصحف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا وتداعيتم عليها كتهافت الفراش ثم نقضتموها فسحقاً لكم يا عبيد الأمة وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرفي الكلم وعصبة الاثم ونفثة الشيطان، ومطفئي السنن! ويحكم أهؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون! أجل والله غدرٌ فيكم قديم وشجت عليه أصولكم وتأزرت فروعكم فكنتم أخبث ثمرة شجي للناظر وأكلة للغاصب»[1].

(١) مقتل الحسين عبد الرزاق المقرم ص ٢٣٤.

في هذه الخطبة تكلم الإمام (ع) معهم بثلاث نقاط وكأنه يقول لهم:

١ ـ إن هذا السيف الذي بأيديكم لنا، وقوتكم لنا وأنا إمام هذه الأمة وليس يزيد فأنتم تقاتلونا بسيفنا.

٢ ـ وحششتم ناراً اقتدحناها..

يذكرهم بنعمة الإسلام الذي أنقذهم من الذل والقهر والاحتقار وجعل منهم خير أمة أُخرجت للناس، ويقول: إن الإسلام هو الذي أخرجكم من الذل إلى العز، ومن الضعف إلى القوة، ومن الجهل إلى نور العلم، ومن الانقياد إلى القيادة، حتى أصبحت هذه الأمة شرارة تحرق الطغاة وأنتم الآن وجهتم هذه النار علينا.

٣ ـ فأصبحتم ألباً (مجتمعين) لأعدائكم، حيث تجمعتم على أوليائكم لصالح أعدائكم، وهذه العبارة تلفت النظر: حيث أن في القلب حب وبغض، سواء كان في القلب السليم أو القلب المريض، وسواء في قلوب الصالحين أو قلوب الطالحين، ولكن امارة الصحة في القلب هو أن يحب الحق، ويبغض الباطل، فإذا انعكس الأمر فصار يرى الحق باطلاً أو الباطل حقاً فذلك قلب منكوس والإمام عليه السلام يقول لهم: إن قلوبكم أصبحت منكوسة وهذا المرض من أخطر أمراض القلب، فإذا انتكس القلب فكل شيء في وجود الإنسان يصبح مقلوباً فيرى المنكر معروفاً، والمعروف منكراً والجمال قبحاً، والقبح جمالاً إن القلب مركز القيادة والتوجيه في وجود الإنسان فإذا انتكس فستكون أخلاق الإنسان منكوسة ورؤيته معكوسة وصفاته رديئة، ويتصف باللؤم ويقابل الاحسان بالاساءة على عكس القلب السليم.

وهؤلاء لما كانت قلوبهم منكوسة أصبحت الحقائق لديهم مقلوبة، فوقفوا يحاربون من يريد انقاذهم وتحريرهم وخلاصهم ويسالمون من يريد استعبادهم واستذلالهم، ويسيئون إلى من أحسنَ إليهم، وبذلك تزول كل خصلة حسنة وتتبدل إلى عكسها، فيطمع حينئذٍ بحطام الدنيا ويصبح همه

الأول والآخر، ويزهد بعطاء الله تعالى، زهده فيما يبقى وطمعه فيما يزول، ويصل إلى حالة يتنكر حتى لنفسه والعياذ بالله، والتعبير القرآني دقيق حيث يقول تعالى: .

﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾[1].

﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾[2].

وخسارة النفس مسألة تختلف عن الفهم المتعارف بيننا، المعروف بيننا أن الخسارة ما يخص الأنا، والصحيح أن الخسارة النفسية هي انتكاسة القلب كلياً وهي كحالة الانتحار، فعندما يخسر الإنسان نفسه فكل جهده ضائع يقول تعالى:

﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾[3].

وتكلم الحسين (ع) معهم في منزل يقال له البيضة عندما التقى جيش الحر بن يزيد الرياحي فقال:

(أنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى عليه وآله وسلم وأهلي وولدي مع أهاليكم وأولادكم ولكم بي إسوة»[4].

وهذه الكلمة تمثل أسمى درجات القيادة، فالقائد من يتقدم في الصف الأول ويقدم كل ما يملك وليس القائد من يجلس في القصور ويطلب من الناس أن يتحملوا شظف العيش ويضحوا بأنفسهم ويستفيد هو.

وبعد هذا العرض العظيم يقول: (وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي

---

(١) سورة الحشر: ١٩.
(٢) سورة الأعراف: ٩.
(٣) سورة الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٤) مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرم ص ١٨٥.

وخلعتم بيعتي فلعمري ما هي منكم بنكير لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل، والمغرور من إغتر بكم فحضكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما نكث على نفسه وسيغني الله عنكم»[1].

إذن عندما تصل الأمة إلى هذه الدرجة من الصدود والانحطاط ، وانتكاس القلوب فإن الإنسان يعود فارغ الفؤاد لا يحس بكرامته وعزته. ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ [2].

إن الارادة والوعي هما الكنزان العظيمان اللذان يهبهما الله للإنسان، وفي حالة الردة الحضارية تتحول الارادة إلى ارتخاء واستسلام للواقع الفاسد، وبذلك يسلب الله عنهم الوعي والارادة، فيرون الأمور بعكسها وحينئذٍ يتحول الإنسان إلى أداة طيّعة بيد الطاغوت.

هذا التحول قد حصل في الأمة في عصر الحسين (ع) وهذه الحالة تحققت بعاملي الإرهاب والإفساد. وبنو أمية قد أجادوا هذه السياسة وهي سنة كل الطواغيت في الأرض، ونتيجة ذلك عاد الطلقاء وأبناء الطلقاء يحتلون قمة الهرم في الدولة وصلحاء الأمة صاروا مهملين في أسفل الهرم.

الإمام الحسين (ع) كان يخطط في إحداث هزة في ضمير الأمة لينفض عنه غبار الغفلة والاستغراق في حطام الدنيا، ليعيد لهم رشدهم، ويزيل الخدر عنهم وهذا لا يحدث إلا بهزة عنيفة تشعر الأمة بعمق الكارثة، وهذه الهزة إن لم تنفع جيله الذي عاصره فسوف تنفع الأجيال القادمة وتبقى عنصر تحريك على طول الزمن، ولهذا فإن ثورة الحسين أعطت ثمارها فيما بعد وبقيت ثورة مجلجلة على تعاقب الأجيال، وصرخة في ضمير الأحرار الى الابد.

---

(١) نفس المصدر.

(٢) سورة البقرة: ٧.

الحسين أنقذ من قبله
وصنع من بعده

الهدف الأساسي في ثورة الحسين (ع) هو سلب الشرعية عن الخلافة الأموية، وتمزيق الستار الديني المزيّف الذي أخفى بنو أمية مخططهم وراءه.

إن المتتبع للتاريخ الأموي يجد أن التخطيط كان منصباً على تحريف مبادىء الإسلام، وقد استثمروا موقع الخلافة وما يتمتع به هذا الموقع من رصيد من القدسية في نفوس المسلمين، وكانوا يبذلون قصارى جهدهم لاضفاء طابع الشرعية، على نظام حكمهم، تجنباً لاثارة حساسية الأمة ولتذليل الصعاب التي تواجه مخططاتهم، وهذا الوضع الذي حرص بنو أمية على تكريسه هو الذي صب المصائب الكبرى على الأمة الإسلامية.

فقد كان الانحراف ينحدر من قصور الخلفاء ويأخذ صفة الشرعية ويتأطر باطار شرعي، وكان هناك من علماء البلاط من يبرر ذلك ويضفي عليه الصبغة الشرعية. وهكذا بالتدريج صار الانحراف ينسحب على الإسلام والمسلمين، وأصبح مألوفاً لديهم لا ينكره منكر!!.

الإمام الحسين عليه السلام كان يعيش وسط هذا الوضع ويعاني منه، ويُدرك مدى خطورته على مستقبل الإسلام، وهو يرى بأم عينه كيف استخدم الحكام شيوخ الحديث، وكيف يبذلون الأموال الطائلة لوضع

الحديث على رسول الله (ص) حتى صار في زمن بني أمية التمييز بين الحديث الصحيح والحديث الموضوع أمراً عسيراً. ولو راجعنا مجامع الحديث نجد أن أكبر عدد من الأحاديث قد وضع في زمن بني أمية، والخطر يزداد أكثر إذا علمنا أنهم استخدموا من الوضاعين المتظاهرين بالعلم والتقوى والزهد من (إمام مقتدى، وحافظ شهير وفقيه حجة، وشيخ في الرواية، وخطيب بارع)[1].

اشترت السلطة الأموية منهم دينهم وسخرتهم لتحقيق مآربها، ولذلك كان من أسباب وضع الحديث هو التقرب إلى الحكام طمعاً بما في أيديهم وقد بين الشيخ محمود أبو رية ذلك قائلاً (قصد التقرب من الملوك والسلاطين والأمراء كما نص على ذلك غير واحد من الحفاظ، وكما كذب علماء السوء على رسول الله (ص) لأجل السلاطين، وكذبوا كذلك في وضع الأحكام والفروع الفقهية لأجلهم. ومن الأحاديث الموضوعة في هذا الباب ما اشتمل على مدح السلاطين وتعظيم شأنهم وهو ما يتملق به الجهال للملوك في هذا العصر كما تملقوا لهم فيما قبله»[2].

ثم يقول:

ولا بد لنا أن نكشف عن ناحية خطيرة من نواحي الوضع في الحديث كان لها أثر بعيد في الحياة الإسلامية ولا يزال هذا الأثر يعمل عمله في الأفكار العفنة والعقول المتخلفة والنفوس المتعصبة، ذلك أن السياسية قد دخلت هذا الأمر وأثّرت فيه تأثيراً بالغاً فسخرته ليؤيدها في حكمها وجعلته من أقوى الدعائم لاقامة بنائها»[3].

فإذن الخطر ينبع من تستر الأمويين بالشرعية الإسلامية وضرب الإسلام من خلالها. ولذلك أنصب اهتمام الإمام الحسين (ع) على كشف

---

(١) الغدير ح ٥ ص ٢٧٧.
(٢) أضواء على السنة المحمدية ص ١٢٣.
(٣) نفس المصدر ص ١٢٦.

الكفر المبطن ليسلب الشرعية منهم ويُفوّت الفرصة عليهم في تحقيق أهدافهم الخبيثة. وكان يصرح بذلك ولا يخفي نيته، كما في قوله لأمير المدينة الوليد بن عتبة.

إنّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة.. ويزيد رجل فاسق شارب الخمر، قاتل النفس المحترمة معلن بالفسق ومثلي لا يبايع مثله.».

لقد كان لخروج الإمام الحسين (ع) ومحاربته ليزيد ورفضه البيعة، واستشهاده بتلك الصورة المفجعة، الدور الأساسي الفعال في إيقاظ مشاعر المسلمين إلى مساحة الجريمة التي حدثت على يد حكام بني أمية.

وهكذا انكشف للأمة الإسلامية إن الخلافة موقعاً سلطوياً يمتلكه الأقوى من الناس والأعتى، وبذلك لم يكن للانحرافات التي يرتكبها جهاز السلطة تأثير تحريفي على الإسلام، وهذا من أهم انجازات ثورة الحسين (ع). فقد بقيت مراكزهم عامرة إلا أنها مجردة من الشرعية، وحفظ الإسلام بعد عاشوراء من التحريف ببركة نهضة الحسين بنسبة كبيرة، فصار المسلمون يرجعون في أمور دينهم إلى فئة أخرى غير الحكام فلم يعد المسلمون يأخذون دينهم من طبقة الحكام.

الثورة إذن شطرت الأمة إلى شطرين، خط العلماء والفقهاء، وخط الحكام، والناس أصبحوا يضعون ثقتهم بالعلماء والفقهاء ويرجعون إليهم، وبقدر ما يدخل الفقهاء في قصور الحكام يصبحون بعيدين عن الأمة.

وبذلك استطاع الإمام الحسين (ع) أن يفصل بين الخطين. والذي يقرأ التاريخ قبل الثورة وبعد الثورة يجد فرقاً نوعياً كبيراً، بين الإسلام الصحيح الصافي الظاهر لدى كل ذي عينين، وبين إسلام الحكام المشوه، إسلام علماء البلاط وأسيادهم المسلوب القدسية، وبذلك ارتفع خطرهم عن الإسلام. إذن دور عاشوراء ليس تصويراً للتاريخ ومرآة عاكسة له وحسب وإنما هو صانع للتاريخ، ودوره ليس دوراً إنفعالياً وإنما هو دور فاعل.

وما بعد عاشوراء مدين له، وهو انعطاف كبير في مسيرة الرسالة الإسلامية، وله دور مفصلي وما بعده قائم عليه.

ومن المسائل المهمة في هذا الخطر المزدوج: خطر تحريف الإسلام، وخطر مسخ الشخصية الإسلامية أن الحسين (ع) واجه هذين الخطرين في مضيق تاريخي فريد والمقصود بالمضيق التاريخي هو: إن المسيرة والتيار عندما يحشران ويحصران في ممر ضيق تسهل السيطرة عليه فهذه الحالة نسميها مضيق. مثلاً الجمهورية الإسلامية تهدد الاستكبار بمضيق هرمز فالقوات الإسلامية عندما تُحكم السيطرة على المضيق، تستطيع أن توقف حركة الامتداد العدواني فهي تحكم الضرب في المضيق لا قبله ولا بعده.

الحضارات كذلك تمر بمضايق بحيث أن أي عمل غير مدروس يؤدي إلى خسارة كبيرة لا تعوض.

ومن المضايق المهمة التي مرت بها الرسالة يوم اختفاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غار ثور وقريش تكاد أن تدركه وتلقي القبض عليه، وكان من أحرج مضائق التاريخ فلو تقدموا خطوات معدودة لأوقفوا حركة التاريخ إلا أن الرعاية الإلهية أفشلت المخطط.

ومن المضائق المهمة يوم الأحزاب حين أقبلت جحافل الكفر تريد اجتثاث شجرة الإسلام، ولذا وصف رسول الله (ص) حالة بروز علي (ع) لعمر بن ود بأن الإيمان كله برز إلى الشرك كله.

وفي سنة ٦١ هجرية مرت الحضارة الإسلامية بمضيق خطر جداً بل يعد من أخطر المضايق التي مرَّ بها التاريخ الإسلامي ويمكن حصر الخطورة في نقطتين:

١ ـ انحسار الوعي عن الأمة بفعل الإرهاب والإفساد الأموي وخصوصاً في زمن معاوية، وقد مسخت الأمة حضارياً وتخدرت الشخصية الإسلامية وتحرّفت المفاهيم في الأذهان، وهذا الأمر مضيق رهيب حيث

تجمدت حركة الدفاع عن الإسلام فلم يُخرج على معاوية إلا نادراً وبشكلٍ فردي.

٢ ـ انحراف الجهاز الأموي الحاكم عن الإسلام بصورة كلية فما كان من الحسين إلا أن يقوم بعمل كبير لانقاذ الرسالة الإسلامية من هذا المضيق العسير حيث توقفت حياة رسالات السماء كلها على شهادة الحسين، فكانت تلك الشهادة المباركة حياة وبقاء واستمراراً لرسالة جميع الأنبياء، ولذا قيل (الإسلام محمدي الوجود حسيني البقاء).

فدور الحسين في يوم عاشوراء كان دوراً عظيماً به صُنع التاريخ، فأنقذ من قبله وصنع من بعده وهذا معنى ما ورد في زيارة وارث: السلام عليك يا وارث أدم صفوة الله، السلام عليك يا وارث نوح نبي الله.

إذن أدخر الله الحسين لشأن عظيم. ومن هنا نقرأ في التاريخ أن آدم، ونوحاً وإبراهيم وسليمان وموسى وعيسى ذكروا الحسين كأنّهم يوطئون البشرية لاستقبال قضية الحسين (ع)[1].

---

(١) راجع بحار الأنوار م ٤٤ ص ٢٤١.

حتمية الصراع بين الحق والباطل

الصراع يشكل العمود الفقري ليوم عاشوراء فأبرز صفة فيه هي التمايز بين الحق والباطل، وكل ما تبع هذا اليوم من صراعات هو تجسيد لهذه الحقيقة بما فيها من آثار وما لها من نتائج. وأن المنطلق الصحيح لدراسة عاشوراء هو دراسة حالات الصراع.

ونحن نبحث مسألة الصراع في أربعة محاور.

١ ـ مسألة الصراع.

٢ ـ أطراف الصراع.

٣ ـ الأهداف والقيم لدى أطراف الصراع في يوم عاشوراء.

٤ ـ نتيجة الصراع.

المحور الأول:

ما هو الصراع؟:

الحياة والتاريخ هما ساحة صراع بين الحق والباطل، فلو ألقينا نظرة دقيقة وفاحصة بتأمل عميق على الخط العمودي في التاريخ، وعلى مساحة الحياة الاجتماعية فيه لا نرى شيئاً أبرز من الصراع بين الحق والباطل وصفحات التاريخ القديم والحديث طافحة بالصراع في كل زمان وعلى طول امتداد رسالات السماء.

ولا نقصد بالصراع الذي يشكل نسيج التاريخ صراع طبقة كادحة ضد

طبقة مستثمِرة مستغِلة، وليس صراع على المال، أو السلطان، وإنما الذي نقصده من الصراع هو أن هناك جبهتان جبهة تدعو إلى الله، وجبهة تصد عن سبيل الله، وبين هاتين الجبهتين صراع دائم. ويمكن أن نعبر عنه صراع بين قيم ومبادىء السماء السامية، وبين الشهوات الأرضية الدانية. وعوامل هذا الصراع بطرفيهِ مغروسة في أعماق النفس البشرية **﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾**[1].

وبما أن عوامل الصراع مغروسة في ذات الإنسان فهو دائم ومستمر ولا يمكن أن يتوقف في يوم من الأيام ولا يمكن أن يحدث توافق ووئام وسلام بين جند الرحمن وجند الشيطان، ومن غير الممكن أن يتنازل أحدهما للآخر، لأن هذا الصراع قائم على مسألة تحكيم شرعة الله في حياة البشرية، والطرف الآخر يرفض حاكمية الله ويؤمن بحاكمية الطاغوت، بل لا ينتهي الصراع إذا تغلب أحد الطرفين على الآخر، وإنما تبقى روح الصراع كامنة في النفوس تتحين الفرص المناسبة للثورة، فلا توقف وإنما هدنة، ثم إن الصراع الحضاري قاسٍ وشديد، وفيه ضراوة وقسوة ودائرته أوسع من دائرة القتال.

وهذه الدعوة الإلهية التى قضى الأنبياء جميعاً حياتهم لأجل تبليغها وترسيخها قائمة وممتدة اليوم. ومهمتها توجيه العقل، ونصرة الفطرة وايقاظها، وتحريك النوازع إلى تحقيق إرادة الله في خلقه، وهذه هي مهمة الدعاة. فإذا وجه العقل، واستيقظت الفطرة، وحركت النوازع تحريكاً إلهيّاً سهل تعبيد الناس لله تعالى.

وخط الدعوة إلى الله تعالى ومنهاجها العملي على طول خط التاريخ يصطدم بشكل دائم بعقبتين:

١ ـ الهوى في داخل النفس وهي أول قاعدة رفض لحكم الله.

٢ ـ الطاغوت على صعيد الحياة السياسية والاجتماعية فعندما يتوصل

---

(١) سورة الشمس ٧ ـ ٨.

أتباع الهوى وعبيد الشهوات إلى مراكز القوة ويصبح بيدهم المال والسلاح والإعلام التضليلي يتحولون إلى طاغوت، وقوة غاشمة تصد عن سبيل الله.

إذن الصراع بين الدعاة إلى الله وبين الطاغوت حتميّة من حتميّات التاريخ الكبرى، حيث أن الدعاة إلى الله تبارك وتعالى يريدون تحكيم شريعة الله في حياة الناس.

وهذا معناه مصادرة المركز الاجتماعي والسياسي والمالي من أيدي الطواغيت، وبالتالي استئصال جذوره من المجتمع لتحرير الناس، وفك القيود من أيديهم، فحينئذٍ لا يمكن للطاغوت أن يقر له قرار وللدعوة صوت ووجود فعلي. ومن أجل ذلك نرى الطاغوت يبذل قصارى جهده ليوقف حركة الدعوة في المجتمع، ويضرب دونها حجاباً كثيفاً لئلا تصل إلى قلوب الناس، فيسلك شتى السبل، ويستعمل كل الأساليب لتحقيق أهدافه وهذا ما يعبر عنه القرآن الكريم بالصد عن سبيل الله ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾[1].

﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً﴾[2].

المحور الثاني: أهداف الصراع:

وما دام الصراع بين القوتين دائم ومستمر، فمهمة الدعاة إلى الله، تعميق الإيمان في قلوبهم، وبعث الشعور بالمسؤولية عند الآخرين، ورفد الدعوة بالقوة المادية والمعنوية، ومواصلة ترويجها وهداية الناس إليها، وازالة العقبات من طريقها لتنفذ في قلوب الناس. ولذلك جاء التعبير

---

(١) سورة النساء : ١٦٧ .

(٢) سورة محمد: ٣٢.

القرآني حاسم ودقيق ﴿قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كلُّهُ لله﴾[1].

فالقتال في الإسلام يستهدف تحقيق أمرين.

١ ـ ازالة الفتنة.

٢ ـ تدعيم ركائز التوحيد لكي تكون الحاكمية المطلقة لله تعالى وحتى لا تكون طاعة الإنسان لغير الله تعالى. فقبر الفتنة في مكانها مقدمة لتحقيق التوحيد وتعبيد الناس لله تعالى. يقول الراغب الأصفهاني (أصل الفتن ادخال الذهب في النار لتظهر جودته من ردائته)[2] فالمعدن الجيد عندما يُصهر بدرجات عالية من الحرارة تستخلص مادته الأصلية ويتطهر من العناصر الدخيلة والشوائب الخارجية، والإنسان كذلك عندما يتعرض لمثل هذا الصهر والتذويب، وهذه الحالة في حياة الإنسان هي الامتحان والاختبار التي يعبر عنها القرآن بالفتنة إما يزداد إيماناً وصفاء وإخلاصاً وأما أن يتحول إلى رماد تذروه الرياح وفي هذا الامتحان قسوة وشدة وضراوة واغراء، ولهذا إما أن يسقط الإنسان فيه، وأما يُخلَص جوهره مما فيه من غثاء وزبد يقول تعالى:

﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾[3].

﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾[4].

وفي الفتنة أما السقوط في الاثم ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾[5] وأما النجاح والخلوص والصفاء وتصفية جوهر الإنسان من أدران الذنوب يقول تعالى لموسى ﴿وفتناك فتونا﴾ أي خلّصناك تخليصاً من دواعي الهوى.

---

(١) سورة الأنفال: ٣٩.
(٢) مفردات غريب القرآن ص ٣٧١.
(٣) سورة المائدة: ٤١.
(٤) سورة التغابن: ١٥.
(٥) سورة التوبة: ٤٩.

فقوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ أي حتى لا تكون هناك عوامل ضاغطة على الإنسان يضعها الطاغوت لتفتن الناس وتعرقل سيرهم إلى الله كأنّه تعالى يقول قاتلوا الكفار حتى لا يحجبوكم عن دينكم ويكون الدين كله لله تعالى.

فالصراع إذن بين الحق والباطل أساس من أسس التاريخ بل هو العمود الفقري للتاريخ، ولولا هذا الصراع الذي جعله الله فريضة مع الطاغوت لحجب الناس عن الله تعالى ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكنَّ الله ذو فضل على العالمين﴾[1].

المحور الثالث: طرفا الصراع:

والطّرفان في هذا الصراع هما خط الدعوة إلى الله، وخط الصدود عن سبيل الله، فخط الدعوة يريد تحرير الناس وتحطيم القيود والأغلال عن أيدي الناس وهدم الحواجز من طريقهم إلى الله تعالى، وخط الصدود يحاول أن يبني تلك الحواجز قال تعالى:

﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾[2] فهدف الدعوة إلى الله تعالى اعادة الإنسان إلى وعيه، بايقاظ فطرته، وتنوير بصيرته، واطلاق سراحه من سجن الجهل والظلم والتضليل والإرهاب والإفساد وأما هدف الطواغيت فهو الصدود عن الله تعالى كي يسهل عليهم استعباد الناس ومص دمائهم واستغلال خيراتهم، وتسخيرهم لخدمتهم، ولهذا لا بد للصراع أن يستمر، ولا بد للمعاناة والابتلاء أن تقع، ولا بد للمؤمنين من النصر.

---

(١) سورة البقرة: ٢٥١.

(٢) سورة النساء: ٧٦.

المحور الرابع: نتيجة الصراع:

مهما استمر الصراع، ومهما قدمت من تضحيات ومهما طفحت بحار الدم فإن النصر للمؤمنين كما قرر ذلك القرآن الكريم بصيغة التأكيد، يقول تعالى:

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾[١].

﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾[٢].

﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾[٣].

﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون﴾[٤].

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[٥].

﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾[٦] وهكذا كثير من الآيات تقرر هذه الحقيقة وأنها حتمية من حتميات الصراع وسيأتي بيان ذلك في فصل الحتميات الأربعة إنشاء الله تعالى.

---

(١) سورة غافر: ٥١.
(٢) سورة المائدة: ٥٦.
(٣) سورة الروم: ٤٧.
(٤) سورة الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣.
(٥) سورة محمد: ٧.
(٦) سورة الحج: ٤٠.

مجالات الصراع

ولننظر إلى مسألة الصراع في مجال الاجتماع والسياسية والنفس من خلال استنطاق الآيات الكريمة التي تمثل أمهات الحقائق والمعارف الإلهية، يقول تعالى.

﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾[1].

من خلال التأمل في هذه الآية الكريمة تتضح لنا مجموعة من الحقائق والمعارف وتقرر عمق جذور الحق والباطل داخل النفس وحتمية واستمرار الصراع بينهما ثم تقرر نتيجة الصراع وحتمية انتصار الحق على الباطل وكل هذا يتضح من خلال مثلين:

المثل الأول

المطر الذي ينزل من السماء فتسيل الأودية وتمتلىء بماء المطر ويختلط بما على وجه الأرض من خبث بالماء الزلال فيعكر صفوه ويعلوه الزبد ويطغى عليه ويخفيه بما يحمل من غثاء وفضلات، وباستمرار

(١) سورة الرعد: ١٧.

الجريان والصعود والنزول ينقشع الغثاء ويزول ويبقى الماء الصافي لينتفع الناس به.

المثل الثاني:

الأحجار المعدنية: هذه المعادن التي نستفيد منها كالذهب والفضة والنحاس والحديد، وسائر المعادن كالياقوت والزبرج الذي تجود بها الطبيعة علينا، ولكنها مخلوطة وممزوجة بمواد كثيرة ولكي نستثمرها ونستفيد منها علينا أن نقوم بتصفيتها، فهذه الأحجار المعدنية فيها جواهر وفيها أخباث، والمعادن التي ينتفع الناس بها مغطاة بتلك الأخباث، واستخلاص تلك الجواهر من وسط تلك الخبائث يحتاج إلى تصفية يتخللها صهر وجهد، ومن دون تصعيد الحرارة لا يمكن استخلاص المعدن الصافي والحلية الثمينة، فبعد الصهر الشديد والذوبان يُفرز ما ينتفع به الناس ويخلص من بين الخبائث ويتحول إلى جواهر وحلي تتزين بها النساء وتتسلح بها الرجال (ذلك مثل الحق والباطل في هذه الحياة، فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابياً طاغياً ولكنه بعد زبد أو خبث ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه والحق يضل هادئاً ساكناً وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحيي والمعدن الصريح، ينفع الناس. «كذلك يضرب الله الأمثال وكذلك يقرر مصائر الدعوات، ومصائر الاعتقادات ومصائر الأعمال والأقوال، وهو الله الواحد القهار، المدبر للكون والحياة العالم بالظاهر والباطن والحق والباطل والباقي والزائل»[(١)].

فمن خلال الصراع بين الحق والباطل، يزول الزبد والغثاء ويبقى ما ينفع الناس، وهكذا يضرب الله الأمثال لكي يقرب المعاني إلى أذهان الناس، هذه ترجمة سريعة للآية الكريمة، وأما تفسيرها ففيه مجموعة نقاط.

---

(١) في ظلال القرآن م ٥ ص ٨٥.

الأولى: «أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها» هذا مثال وهو أن الله ينزل رحمته على هذا الكون وكل ما في هذا الكون يستقبل رحمة الله ولكن كل بقدره، وبمقدار ما يتسع ظرفه واناءه، والأوعية مختلفة فمنها وعاء واسع يستقبل كثيراً ومنه ضيق صغير لا يسع إلا قليلاً.

الثانية: (فاحتمل السيل زبداً رابياً) ينزل الماء من السماء صافياً، ولكن في الأرض توجد خبائث وعندما تختلط بالماء تطغى عليه فيكون الزبد والغثاء هو الطافح الرابي حتى يخيل للناظر أنه المسيطر ولا شيء غيره وكما أن الطبيعة فيها خليط من الجواهر والأخباث كذلك نفس الإنسان فيها الهدى والفطرة والعقل والارادة كذلك فيها الهوى والفجور والنفاق وسوء الأخلاق وبتعبير القرآن فيها التقوى والفجور **﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾**. وفي داخل المجتمع كذلك يوجد صالحون أبرار وفساق فجار، ومعنى ذلك يوجد داخل المجتمع تياران مستقران ثابتان كما يوجد في النفس قوة التقوى وقوة الفجور.

٣ ـ إن الزبد الموجود في الطبيعة مختلط بالمعادن، وهذا الزبد موجود في النفس على شكل الهوى، وفي المجتمع على شكل الإنحراف وهذا الزبد الموجود في النفس وفي المجتمع طافح ظاهر للعيان حتى يترائى للناظر بأنه لا يوجد غيره وإذا وجد فهو الأقوى، وهكذا نجد أن مساحة الحق صغيرة في عمود التاريخ، ونجد الباطل منتفخ وطاغي يغطي أغلب الكرة الأرضية، والذي ينظر في التاريخ لا يرى إلا تيارات الجاهلية طاغية مستعلية، وأهل الباطل هم المسيطرون، فالحق مضمور والباطل ظاهر كذلك المجتمع البشري جزء قليل يؤمن بالله إيماناً حقيقياً لا شائبة فيه ولكن تجد الكفار والمنافقين هم الأكثر عدداً إذا ما قيسوا بعدد المؤمنين.

وفي عمق النفس الإنسانية الكثير من الهوى، وحب الذات والطمع والجشع والحسد، والبغضاء والأنانية، وما شابه ذلك مما يشكل طبقات

وحجب كثيفة في النفس، ومن الصعوبة بمكان أن نستخرج من تحته قبس النور.

فلا يُرى في المجتمع إلا أصحاب الهوى والسلطان والتيارات الجاهلية ولا تتوق أنفسهم إلا إليها، ولا يجدون في أنفسهم غير التلهف للدنيا والشوق إلى زخارفها غير الحسد والأنانية.

أما ذوي البصيرة والوعي فيرون من وراء الزبد ماء صافياً، وفي أعماق الأحجار المعدنية جواهراً ثمينة وهم يعرفون كيف يستخرجون منها ذهباً صافياً.

لنفكِرَ قليلاً كيف استخرج رسول الله (ص) من ذلك المجتمع البدوي المرتكس في الوثنية إلى الحضيض مؤمنين موحدين في منتهى التوحيد، ذلك البدوي الذي لا يفكر بأوسع من عشيرته كيف صار مؤمناً يفكر بهداية العالم واستيعابه وكيف صنع من ذلك الحبشي بلالاً، ومن ذلك الفارسي المستعبد سلماناً، ومن ذلك الرومي المستضعف صهيباً. وما أصحاب الحسين السبعين الذين صنعوا التاريخ الرسالي معه إلا نتاج ذلك المصنع الإلهي، فهو الذي ينفع الناس وما سواه زبد وغثاء.

كيف نفجر منابع الخير في النفوس؟

من خصائص المؤمنين أنهم لا يبهرهم الزبد الرابي، ولا يخدع بصائرهم، ولا يبعث في نفوسهم اليأس، ولا يستعظمون حجمه فهم يعلمون أنه غثاء خفيف الوزن سرعان ما يزول، وينظرون إلى ما وراءه من جواهر مغطاة به. ولذلك عندما يواجهون الحالات الاجتماعية البائسة فإنهم يكرسون جهدهم لإيقاظ الفطرة وتوجيه العقول، وتوجيه نوازع الخير في النفوس ولهم في مواجهة الانحراف وسيلتان:

١ ـ البصيرة والرؤية النفاذة التي تخترق الزبد والغثاء إلى ما تحته من ماء ومعادن، والمؤمن العامل ذو البصيرة النفاذة يرى ما وراء طيش

النفوس ونزقها، الخير والبر والتقوى ويعمل على استخراجه من تحت ركام الأهواء والشهوات.

٢ ـ إنهم يحسنون استخراج واستخلاص هذا الماء الصافي والمعدن الخالص من وراء الزبد والغثاء، وكما يحسنون ذلك فهم يحسنون تفجير منابع الخير في النفوس، ويستخرجون منها البر والتقوى، والاخلاص والصدق من وراء غثاء الهوى والضلال والباطل وهذه هي مهمة الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى.

العاطفة النبيلة والفطرة الموحدة هي كنوز الخير مودعة في النفس والمجتمع ولكن هذه الكنوز مغشوشة ومخلوطة، ومهمة رسل الله وأنبيائه والدعاة إليه استخراج العناصر والمنابع الأصلية في النفس من تحت ركام الأهواء والشهوات وهذه العملية تسمى تزكية ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[(١)].

ويقول تعالى: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[(٢)].

ونحن نرى الساحة الاجتماعية وما فيها من شباب طائشين متميعين، ولكن وراء هذا الطيش والاستهتار توجد كنوز مودعة في نفوس هؤلاء الشباب، يمكن أن نفجرها لو أزلنا ركام هذا الطيش والميوعة. والمؤمن يعلم ما وراء هذا الطيش من الخير الكثير ويحسن استخراج هذه الجواهر المغطاة بالزبد..

ومن خلال ما قررته الآية الكريمة نستخلص النتائج التالية:

١ ـ إن الحق والباطل لا يمكن أن يتجاور في علاقة وئام ووفاق،

---

(١) سورة الجمعة: ٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٦٤.

ولا صلح بينهما لأن أحدهما يحاول أن يغطي على الآخر ويبطل فاعليته، فالباطل يريد أن يدحض الحق والحق كذلك. فكل منهما يريد أن يحجب الآخر ويكون هو العنصر الفاعل المؤثر في الحياة الإنسانية، فالصراع بينهما من سنن اللهوهو من حتميات التاريخ.

٢ ـ إن الصراع بين الحق والباطل مستمر من لدن آدم إلى يوم القيامة، وسبب هذا الاستمرار أن الخبث مغروس في أعماق نفس الإنسان، ونفس الإنسان هذه فيها ذهب وفيها تراب، والذي فيه الماء فيه الزبد والذي فيه الخير فيه الشر إذن ما دام هذا الخليط موجود فلا يحصل ذهب بلا تصفية وما دامت عوامل التقوى والفجور مركوزة في النفس فلا بد من استمرارية الصراع.

٣ ـ نتيجة هذا الصراع بين الحق والباطل أن الحق يبقى ويثبت رغم ضعفه وقلة أنصاره، والباطل يذهب جفاء ويزول رغم ضخامة حجمه وطغيانه. انظروا إلى بريق السلاطين من بني أمية وبني العباس أصبحوا في خبر كان ولم تبق لهم باقية بل أصبحوا لعنة الأجيال، بل الذي ينتسب لهم يخجل من نفسه وأينما رأينا الخير والحق، نذكر واقعة الطف وأصحاب الحسين واثنين وسبعين رجلاً من أصحابه. بل كل ما لدينا من الخير فهو من عاشوراء. وهذه سنة أخرى من سنن الله تعالى في المجتمع والتاريخ أما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض وبذلك يثبت الله الذين آمنوا.

قال الراغب الأصفهاني: (الباطل نقيض الحق وهو ما لاثبات له عند الفحص عنه[١] قال تعالى: ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعونَ من دونه هو الباطل﴾[٢] فالباطل زائل والحق ثابت كما يقول الشاعر الجاهلي.

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

(١) مفردات غريب القرآن ص ٥٠.

(٢) سورة الحج: ٦٢.

والله تعالى يقول: ﴿يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾[1].

تأملوا في دنيانا اليوم ترون باطلاً يدعمه السلطان والعلم والفكر والسلاح، وقد سخرت له عقول شياطين الانس يخططون ويديرون ويكيدون لاطفاء نور الله تعالى، ورغم ذلك كله ترى الحق مجلجلاً صوته في شرق الدنيا وغربها. وغير ذوي البصائر ينظرون اليوم إلى البريق الأمريكي، والأوروبي فيرون بنياناً شامخاً أمّا ما ينفع الناس فهم غافلون عنه، وقد رأينا كيف كرست الشيوعية العالمية كل جهودها وبما تملك من قدرات جبارة طيلة سبعين عام لاستئصال شجرة التوحيد من قلوب المسلمين إلا أنها بعد هذا الجهد الجهيد انهارت وارتفعت كلمة التوحيد عالية مجلجلة، يقول تعالى ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾[2].

والهباء هي الذرات الترابية العالقة في الجو ولا تظهر إلا في أثناء ضوء الشمس في الكوه، وهكذا سيكون مصير الحضارات المادية التي يخطف بريقها أبصار الجاهلين.

ويقول تعالى: ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾[3].

فهم يخدعون أنفسهم بالظواهر البراقة من أمور مادية أو معنوية نظريات زائفة أو أفكار منحرفة كل هذا سيزول عنهم ويبقون مبهوتين هذه هي سنة الله فالباطل زائل لا محال، الحق باق وثابت على كل حال.

٤ ـ وأما ما ينفع الناس، فهو الباقي والزبد والغثاء يزول على كثرته

---

(١) سورة إبراهيم: ٢٧.
(٢) سورة الفرقان: ٢٣.
(٣) سورة الأنعام: ٢٤.

وضخامته، وهكذا هذه الثلة المعدودة من الربانيين هي التي تقرر مصير التاريخ.

لقد برزت على وجه الأرض شجرتان شجرة طيبة وأخرى خبيثة متسعة وكبيرة، والشجرة الطيبة معدودة الأغصان إلا أنها ثابتة تعطي الخير والصلاح للبشرية، وتاريخ البشرية هو تاريخ الصلاح والخير وليس تاريخ الفساد والكفر والنفاق.

٥ ـ إن الصراع بين الحق والباطل فُرقانٌ يميز أهل الحق عن أهل الباطل، وهذا الفرقان يبرز في ثلاثة أمور أساسية في النفوس أولاً، وفي الأفكار والتصورات ثانياً، وفي المجتمع والتاريخ ثالثاً[١]. فالحق والباطل ما داما مختلطين فلا يمكن التمييز والفرز بينهما إلا بالصراع، وما دام في الأفكار والتصورات خلط بين ما هو حق وما هو باطل فلا يتميز إلا على ساحة الصراع الفكري والحضاري، وهكذا في النفوس حق وباطل وتقوى وفجور ولا يفرز هذا إلا في ميادين الصراع، وفي المجتمع أيضاً يوجد حق وباطل وحتى في مجتمع المؤمنين، فمنهم من يحب الله ومنهم من يحب الدنيا ولكنهم جميعاً يؤدون الصلاة، حتى إذا جاءت الفتنة فرزت المصلي لله الثابت على دينه، من المؤدي صورة الصلاة المتزلزل.

إذن النفس المغشوشة، والمجتمع المغشوش والفكر المغشوش لا يتميز إلا بالصراع ولا يؤدي الحق دوره سواء في النفس أو في المجتمع أو في الأفكار إلا في حلبة الصراع.

إن درجات الصفاء تتفاوت من نفس إلى نفس، ومن فكرة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر ولكن كلما ازدادت النفس صفاء ازدادت عطاءً وخيراً وكلما صفى الفكر كان أكثر تأثيراً، وكلما صفى المجتمع تكون مسيرته أسلم وأخلاقه أقوم..

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك في الفصل القادم انشاء الله.

الفرقان

﴿وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير﴾[1].

الفرقان القرآن وكل ما فُرِّقَ به بين الحق والباطل فهو فرقان، ولهذا قال تعالى ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان﴾[2] (والفرقان أبلغ من الفرق لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل ويوم الفرقان هو اليوم الذي يفرق فيه بين الحق والباطل والحجة والشبهة و (يجعل لكم فرقاناً) أي نوراً وتوفيقاً على قلوبكم يفرّق به بين الحق والباطل[3].

من أهم خصائص وافرازات الصراع أنه فرقان لأنه يميز به بين دعاة الحق ودعاة الباطل. وهذا الفرز كما أشرنا سابقاً في ثلاثة مواضع.

١ ـ في النفس البشرية.

٢ ـ في داخل المجتمع عندما يتعرض إلى هزة عنيفة.

٣ ـ في الرؤى والتصورات.

أما في النفس: إن من مسلمات العلوم النفسية إن نفوس بني آدم فيها خير وشر، وهدى وضلال، وبتعبير القرآن الكريم فيها فجور وتقوى، ثم يجري الخلط والاختلاط داخل النفس ولذلك نرى الناس يحاولون أن

(١) سورة الأنفال: ٤١.
(٢) سورة الأنبياء: ٤٨.
(٣) لسان العرب ج ١ ص ٣٠٢.

يجمعوا بين السيئات والحسنات، وبين الخير والشر، فمن ناحية يلبون نداء شهواتهم، ومن ناحية أخرى يريدون أن يرضوا الله تعالى، والضمير يخلق مبررات مختلفة ليوازن بين شهوات الدنيا وقوانين السماء، بحيث يخلق تصوراً، أنه بهذه الموازنة يحوز الدنيا والآخرة، فشطر للدنيا وشطر للآخرة، ولكن هذه الموازنة بين الدنيا والآخرة وبهذا الشكل في مقاييس الإسلام غير صحيحة وغير موفقة فقد يصل الإنسان في كثير من الأحيان ـ ولا سيما في المواقف الحاسمة ـ إلى مفترق طرق، أما أن يختار الحق، وأما أن يختار الباطل لأنه لا ثالث لهما. والجمع مستحيل، وهنا تدخل حرية الاختيار وهي أخطر ما في حياة الإنسان فعليه أن يختار أحد السبيلين، ويتحمل مسؤولية اختياره وعليه أن يتخذ موقفاً جدّياً، فأما أن يطرد الحقُ الباطلَ من نفسه أو بالعكس، هذا المفترق هو حالة المواجهة الحادة، والضمير هو المحكمة العادلة التي تقرر مصير الإنسان في الانتماء إلى أحد النجدين، فإن اختار الباطل فمعناه أن يفارق الحق مفارقة كاملة أو بالعكس، وهذه الحالة تنعكس على الإنسان في المواقف الحاسمة انعكاساً كاملاً فلا يستطيع أن يوازن ولا يستطيع أن يخفى حقيقته وإنما عليه أن يحدد موقفه بكل صراحة.

فرقان الآخرة:

قد يستطيع الإنسان في حالات نادرة أن يخفي واقعه ويظهر على غير حقيقته في الدنيا، فيبطن شيئاً ويظهر شيئاً عكس ما يبطنه ويمر حاله بسلام، هذا في الدنيا ممكن ولكن في الآخرة تنكشف البواطن على حقيقتها يقول تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ أي تنكشف نوايا الإنسان من أعماله الصالحة والطالحة هل هي لله تعالى أم لغيره، هذه الأسرار التي كان الإنسان يخفيها وراء أعماله تظهر على حقيقتها على رؤوس الأشهاد. روي عن معاذ بن جبل قال: سألت رسول الله (ص): وما هذه السرائر التي تبلى بها العباد في الآخرة؟ فقال (ص): هي أعمالكم من الصلاة والصيام

والزكاة والوضوء والغسل من الجنابة وكل مفروض، لأن الأعمال كلها سرائر خفية فإن شاء قال الرجل: صليت ولم يصل وإن شاء قال: توضأت ولم يتوضأ فذلك قوله ﴿يوم تبلى السرائر﴾[1]. وهكذا تقرأ على وجه الإنسان وملامحه ما كان يخفيه في نفسه من أسرار من عمل صالح أو طالح من حب أو بغض ومن ولاء أو براءة كل ذلك يظهر وينكشف ولا يستطيع أن يظهر بوجهين كما في الدنيا، وإنما وجه واحد يجسد حقيقة الإنسان الباطنية ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون، وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾[2].

فالوجوه المبيّضة تعلن عن ولائها وحبها وبرائتها، والوجوه المسودة تكشف عن كذبها ونفاقها يقول تعالى:

﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾[3].

فالوجوه تنم عن بواطن النفوس ﴿وجوه يومئذٍ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذٍ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة﴾[4].

أما يوم الفرقان في الدنيا فإنه يشبه يوم الفرقان في الآخرة، فكما أن الفرقان في الآخرة يكشف السرائر كذلك الفرقان في الدنيا يكشف المجرمين في الدنيا، فقد يكتم المجرمون حقائق نفوسهم، ولكن في ساعات الصراع والمواجهة تبرز هوية المجرمين، ويظهرون على حقيقتهم ففي أيام السلم تستطيع الدول الكبرى أن تتظاهر بحقوق الانسان، ولكن

---

(١) مفردات غريب القرآن ص ٣٧٨.
(٢) سورة آل عمران: ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٣) سورة الزمر: ٦٠.
(٤) سورة عبس: ٣٨ ـ ٤٢.

عند المواجهة تسقط هذه الورقة، وتتمزق الأقنعة، ويكشر الاستكبار العالمي أنيابه، ويقتل الأبرياء دون رحمة وها نحن نرى دول الاستكبار تتقنع بالإنسانية وتتستر بثوب الدفاع عن حقوق الإنسان، وتتظاهر ضد الارهاب، ولكن حين تدخل الصراع مع مخالفيها تمزق اللافتة وتفتك فتكاً دونه فتك الوحوش، وقد أكدت الأحداث العالمية أن أمريكا لا تزال تفكر بطريقة القرصنة البحرية والجوية بالرغم من ادعاءاتها المتواصلة بأنها ضد الارهاب والقرصنة، ولا يمكن كشف هذا الوجه القبيح إلا عن طريق الصراع وأوضح مثل برز فيه الفرقان: هو ساحة الطف فالذين كانوا يأخذون طرفاً من الدنيا، وطرفاً من الآخرة لم يستطيعوا أن يسايروا الحسين في كربلاء فكانوا يعيشون صراعاً عنيفاً في داخل نفوسهم، بين نصرة الحسين (ع) التي فيها خسارة الدنيا وبين قتاله الذي فيه خسارة الآخرة. وبما أن العذاب الأخروي مؤجل يمكن للإنسان أن يجد له مبرراً ولذلك اختاروا الدنيا على الآخرة والقليل القليل الذين اختاروا الآخرة على الدنيا، ولذلك يحدثنا التاريخ أن جماعة خرجوا من جانب الباطل إلى جانب الحق وآخرون على عكسهم خرجوا من ميدان الحق إلى ميدان الباطل ولكن الكل عجزوا عن الموازنة بين الحق والباطل. ونذكر الآن نموذجين وموقفين وعلى ضوئهما نقيّم الباقين.

الأول: الحر بن يزيد الرياحي، والثاني عمر بن سعد هذان الرجلان عاشا حالة الصراع بشدة، ثم افترقا في الموقف، الحر خرج من جبهة الباطل ودخل جبهة الحق[1]، وعمر بن سعد اختار البقاء في جبهة الباطل.

بين هذين النموذجين مشتركات ومفترقات، وأن كل واحد منهما استطاع أن يوازن ويجمع بين عمل الدنيا والآخرة، حيث كانا يعملان في جيش بن زياد، وكان بإمكان كل منهما أن يشكل جانباً من جوانب الدنيا.

ومن المشتركات بينهما أنهما خلال مرحلة الصراع النفسي لاختيار

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك في فصل قادم إن شاء الله.

أحد الجبهتين وتقرير المصير لم يستطيعا أن يجمعا بين الدنيا والآخرة.

عمر بن سعد عندما كلفه ابن زياد بالخروج استعفى وتذكر جميع كتب السير اعتذاره، ولما كتب له ابن زياد عهداً بولاية الري طلب منه مهلة ليلة، فاستشار ابن أخته، فقال له: والله لأنْ تخرج من مالك وسلطانك ولئن تخرج من سلطان الدنيا كله خير من أن تلقى الله بدم الحسين.

فقال ابن سعد: افعل إن شاء الله وبات ليلته مفكراً في أمره وسمع يقول:

أأترك ملك الري والري منيتي   أم أرجع مأثوماً بقتل حسين
وفي قتله النار التي ليس دونها   حجاب وملك الري قرة عيني

إذن كل واحد منهم دخل مرحلة المعاناة، ولكن أحدهما دخل والحق مسيطرٌ على نفسه، والآخر خرج والباطل مسيطر على نفسه.

لماذا هذا الفرق بينهما؟

آخر قلعة في الإنسان تقاوم الباطل هي الضمير، فإذا هُدمت هذه القلعة تنتهي المقاومة في حياة الإنسان، عمر بن سعد قد تلاشت هذه القلعة في طيشه وتخبطه، وأما الحر فقد بقيت هذه القلعة شامخة لم تهدمها الاغراءات، ونستطيع أن نقارن بينهما من خلال الحوار الذي دار بين الحسين وبين كل منهما على انفراد، مع العلم أن ساحة الحوار كانت واحدة إلا أن الحر كان يمتلك ضمانات وقيم ثابتة في حياته، وأما عمر بن سعد فقد تجرد من كل القيم الأخلاقية والدينية.

يذكر أصحاب السير أن الحر لما التقى الحسين (ع) وأذّن المؤذن فقال الحسين (ع) للحر «أتريد أن تصلي باصحابك قال: لا بل تصلي أنت

ونصلي بصلاتك فصلى بهم الحسين (ع)»[1].

وعندما خاطب الحسين الحر وجيشه وعرض عليهم رسائلهم وطلب منهم أن يسمحوا له بالانصراف، وقد خاطبهم مرتين كان الحر في المرة الأولى لا يرد على الحسين (ع)، وفي المرة الثانية عندما أخرج لهم الحسين كتب أهل الكوفة. قال: إنّا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك وقد أُمِرْنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد الله، فقال له الحسين (ع) الموت أدنى إليك من ذلك»[2] وأقسى كلمة سمعها الحسين (ع) من الحر وقد حجز الحر موكب الحسين. فقال له الحسين (ع) ثكلتك أمك ما تريد؟ فقال الحر أمّا لو غيرك من العرب يقولها لي وهو على مثل الحال التي أنت عليها ما تركت ذكر أمه بالثكل كائناً من كان ولكن مالي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما نقدر عليه[3].

وأما حواره (ع) مع عمر بن سعد. فعندما أرسل الحسين إليه وجلسا يتحدثان، فقال الحسين: يا ابن سعد؛ أتقاتلني أما تتقي الله الذي إليه معادك، فأنا من قد علمت ألا تكون معي وتدع هؤلاء فإنه أقرب إلى الله تعالى؟ قال عمر: أخاف أن تُهدم داري، قال الحسين (ع) أنا أبنيها لك، فقال: أخاف أن تؤخذ ضيعتي، قال (ع): أنا أخلف عليك خيراً منها من مالي بالحجاز، ويروى أنه قال لعمر أعطيك (البغيبغة) وكانت عظيمة فيها نخل وزرع كثير.

ولما يئسَ منه الحسين (ع) قام وهو يقول: مالك ذبحك الله على فراشك عاجلاً، ولا غفر لك يوم حشرك فوالله إني لأرجو أن لا تأكل من بر العراق إلا يسيرا، قال ابن سعد مستهزءاً: في الشعير كفاية.

---

(١) لواعج الأشجان ص ٩٠.
(٢) لواعج الأشجان ص ٩١.
(٣) لواعج الأشجان ص ٩٢.

فنحن نرى أن الحر يلتزم بالقيم الكبرى ويتأدب أمام الحسين، وأما ابن سعد فقد تجرد من ذلك جميعاً، هذا هو الفرقان، وكل الناس تؤثّر فيهم الهزّة النفسية إلا أن طائفة منهم ينحازون نحو الحق وآخرون ينحازون نحو الباطل.

الذين اتبعوا الحسين باعوا الدنيا وفازوا بالآخرة والذين حاربوه خسروا الدنيا والآخرة.

فيوم عاشوراء من الأيام التي ميزت الناس وكشفت السرائر النفسية، فهو يوم تصفية واسعة جرت داخل النفوس.

٢ ـ الفرقان في المجتمع:

كل مجتمع خليط حضاري من المؤمنين والفاسقين، والصالحين والطالحين، والشرفاء والوضعاء والشجعان والجبناء، ويصعب فرز العناصر الصالحة من العناصر الطالحة في الوضع السلمي الهادىء، أما في أيام الشدة والصراع فيتميز المؤمنون عن المنافقين، والصالحون عن الطالحين، لأن الساحة تتطلب البذل والعطاء الحقيقي، وفي سورة الأحزاب تصوير دقيق لتلك الحقيقة حيث ينشطر الناس إلى شطرين في جبهتين متمايزتين فعندما تشرح الآيات محاصرة المدينة تقول:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذا جاءتكم جنود فأرسنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا. إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستئذن فريق منهم

النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا﴾[1].

هذا هو الفرقان الأول في الدنيا، وبعد هذا الفرقان فرقان القيامة، وفيه يفصل الناس بعضهم عن بعض ولذا سمي يوم القيامة (يوم الفصل). فهو يفصل إلى صفين صف خاص بالمؤمنين، ويتميز المجرمون بصف آخر يقول تعالى ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾[2] ويقول تعالى: ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتا﴾[3]. وهكذا يبرز الصفان وكل منهم يحمل أوزاره ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾[4] ففي الدنيا يمكن أن يحمل الإنسان وزر غيره كمن يحمل وزر أولاده وأصدقاءه يقول تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾[5] أما في الآخرة فلا يتحمل أحد وزر أحدٍ.

وكما أن يوم القيامة يصنف الناس كذلك الصراع له دور جيد في تصنيف وتوزيع الناس فترى هناك من يهتف للمنتصر بالخلود وللمخذول المنهزم بالموت. والحياة بطبيعتها ترفض المتفرج مثلاً ساحة كرة القدم مثلاً، فيها فريقان متنافسان وفريق المحكمين، وجموع المتفرجين الذين يصفقون للمنتصر، فساحات الصراع تجبر الإنسان إما أن ينتمي إلى هذا الفريق أو إلى ذاك، ويُرفَضُ المتفرج. فكل من يشهد الساحة لا بد أن يوالي إلاّ أحد إلاّالفريقين وأن يتبرأ من الآخر. هذه خصائص الساحات المشتعلة كساحة الاعدام لا يوجد فيها أحد وله موقف من القاتل أو المقتول. فأما أن يرتاح لموت المحكوم، أو أن يلعن الحاكم القاتل. لنتأمل في كلمة الإمام الحسين (ع) لعبيدالله بن الحر الجعفي بعدما رفض دعوة الإمام قال له الإمام (ع) «إن استطعت أن لا تسمع صراخنا ولا تشهد

---

(١) سورة الأحزاب: ٩ ـ ١٣.
(٢) سورة يس: ٥٩.
(٣) سورة النبأ: ١٧.
(٤) سورة الأنعام: ١٦٤.
(٥) سورة الأنفال: ٢٥.

وقعتنا فافعل فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ولا ينصرنا إلاّ أكبه الله في نار جهنم».

فهؤلاء الذين أكبهم الله على وجوههم في جهنم لم يضّيقوا على الحسين، ولم يحاربوه ولم يحرقوا له خيمة بل كانوا متفرجين مراقبين ولم ينصروه وكان الحسين يقول: من لم يكن معنا فهو علينا، وقصة لقاء الحسين (ع) مع عبيدالله بن الحر الجعفي تدلنا على ذلك. يروي أصحاب السير أن الحسين (ع) سار من عذيب الهجانات حتى نزل قصر بني مقاتل فرأى فسطاطاً مضروباً ورمحاً مركوزاً وفرساً واقفاً فسأل عنه فقيل هو لعبيدالله بن الحر الجعفي. فبعث إليه الحجاج بن مسروق الجعفي، فسأله عما وراءه قال: هدية إليك وكرامة إن قبلتها هذا الحسين يدعوك إلى نصرته فإن قاتلت بين يديه أُجرت وإن قتلت استشهدت فقال ابن الحر والله ما خرجت من الكوفة إلا لكثرة ما رأيته خارجاً لمحاربته وخذلان شيعته فعلمت أنه مقتول ولا أقدر على نصره ولست أحب أن يراني وأراه.».

ثم مشى إليه الحسين (ع) ولما استقر به المجلس حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

يا ابن الحر إن أهل مصركم كتبوا إليَّ أنهم مجتمعون على نصرتي وسألوني القدوم عليهم وليس الأمر على ما زعموا وأن عليك ذنوباً كثيرة فهل لك من توبة تمحو بها ذنوبك؟.

قال: وما هي يا ابن رسول الله؟ فقال: تنصر ابن بنت نبيك وتقاتل معه.

فقال ابن الحر: والله إني لأعلم أن من شايعك كان السعيد في الآخرة ولكن ما عسى أن أغني عنك ولم أخلف لك بالكوفة ناصراً فأنشدك الله أن تحملني على هذه الخطة، فإن نفسي لا تسمح بالموت! ولكن فرسي هذه «الملحقة» والله ما طلبت عليها شيئاً قط إلا لحقته ولا طلبني أحد وأنا عليها إلا سبقته فخذها فهي لك.

فقال الحسين: إما إذا رغبت بنفسك عنا فلا حاجة لنا في فرسك ولا فيك «وما كنت متخذ المضلين عضدا». (وإني أنصحك كما نصحتني إن استطعت أن لا تسمع صراخنا ولا تشهد وقعتنا فافعل فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ولا ينصرنا إلا أكَبّه الله في نار جهنم)[1].

هذا نموذج غريب يريد أن يجمع بين النقائض فهو يريد أن يعافيه الله من قتال الحسين وأن لا يبتليه بدمه، في الوقت الذي يريد أن تسلم له دنياه، ثم يريد أنْ يُكرم الحسين فيهدي له فرسه وسيفه، ولأجل أن يحق هذه المعادلة الصعبة فر من الكوفة، ولما طالبه الحسين أن ينصره كان جوابه: بأن نفسه لا تطاوعه على فراق الدنيا، وجواب الحسين (ع) إليه كان دقيقاً فيقول له: إذا رغبت عنا بنفسك فلا حاجة.

كأنَّ الحسين يقول له: إننا بحاجة إلى من يوطن نفسه على لقاء الله منطلقاً إلى الشهادة ونحن نريد الشوق والحب والايثار فماذا نصنع بفرسك.

ومرجع هذه الحالة (موقف بن الحر الجعفي) هو فقدان الثقة في التعامل مع الله، وسبب فقدان الثقة هو شدة التعلق بالدنيا، مثلاً لو كان الإنسان يملك راس مال كبير ويطلب منه أن يضارب مضاربة تدر عليه أرباحاً طائلة فلو كان مطمئناً بذلك فلا يدخر ديناراً واحداً بل يضع كل رأس ماله. لأنه مطمئن أنه سيربح خلال فترة قصيرة مبلغاً كبيراً، أما لو كان شاكاً فتبدأ الموازنات فيقول إذا خسرت فلا أخسر رأس مالي كله، وإذا ربحت ربحت مبلغاً ضخماً هذا نوع من الموازنة وطبيعة هذه المعاملة هي التردد، فلا يضع رأس ماله كله وإذا ربح فلا يربح الربح كله.

عبيدالله بن الحر لم يكن مطمئناً ولا واثقاً بالله وثوابه ولذلك لم يضع رأس ماله أمام الحسين، وإنما أعطى للحسين فرسه وسيفه فلم يقبلهما الحسين (ع) منه.

---

(١) مقتل الحسين للسيد المقرم ص ٧٩.

٣ ـ الفرقان بين الرؤى والتصورات:

في الصراع يتميز الحق عن الباطل فلا يختلطان ولا يحصل التباس في أمرهما عند الناس، وقد وجدنا أن الفرقان الأول في الدنيا يوجد نظيره في الآخرة وكذلك في الفرقان الثاني، هذا التفريق والتميز في الدنيا، نفسه يجري على ساحة الحساب في الآخرة، ففي الآخرة لا يلتبس الحق بالباطل، فلا مجرم يستطيع أن يدافع عن جريمته أو يخفيها ولا مبطل يستطيع أن يلبس باطله ثوب الحق قال تعالى:

﴿فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾[1].

﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون. ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾[2].

إذن يوم القيامة فرقان بين الحق والباطل وكل منهم منفصل عن الآخر، أما في الدنيا فالحق والباطل يمكن أن يختلطا، ويُشبه أحدهما الآخر، أو قد يلبس الباطل ثوب الحق، وأدق تصوير لهذه الحقيقة ما صوره أمير المؤمنين بقوله عليه السلام:

فلو أن الباطل خلص من مزاج ألحق لم يخف على المرتادين، ولو أن ألحق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه السن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث (قبضة من الحشيش يختلط فيها الرطب باليابس) ومن هذا ضغث فيمزجان فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه وينجوا الذين سبقت لهم من الله الحسنى»[3].

وبذلك يتضح أن سبب انحراف كثير من الناس امتزاج الحق بالباطل

---

(١) سورة الملك: ١١.

(٢) سورة الأنعام: ٢٢ ـ ٢٤.

(٣) نهج البلاغة خطبة رقم: ٥٠.

(يؤخد من هدا ضغث..) وعدم القدرة على التميز، اما في حالات الصراع الحضاري والعقائدي وفي حالات الولاء لله، والولاء للطاغوت يتميز الحق، عن الباطل فلا يخفى أمر الحق على ذوي الباطل، ولا يخفى أمر الباطل على ذوي الحق. بل يتضح للجميع ـ باستثناء أهل المصالح ـ أن هذا هو الحق، وذلك هو الباطل يقول تعالى ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة﴾[1] وهذه هي الخاصية المميزة، أن الهالك والساقط يهلك ويسقط وهو على بينة من الحق، والذي يهوى ويسقط هو على بينة من سقوطه.

حالات الفرقان هذه كانت في عاشوراء واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، فأصحاب الحسين (ع) قبل لقاء الله كانوا والجنة كمن رآها فهم فيها منعمون، فهم على بينة من أمرهم ما بعدها بيّنة، وكذلك أصحاب عمرو بن سعد كانوا يعلمون أنهم على الباطل. يحدثنا عن هذه الحقيقة الضحاك بن قيس المشرقي، قال: بتنا ليلة العاشر فقام الحسين (ع) وأصحابه يصلون الليل كلّه ويستغفرون ويدعون ويتضرعون، فمرت بنا خيل تحرسنا، وأن الحسين (ع) ليقرأ ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا اثماً ولهم عذاب مهين، ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾[2] فسمعها رجل من تلك الخيل: فقال: نحن ورب الكعبة مُيّزنا منكم (قال) فعرفته. فقلت لبرير أتعرف هذا؟ قال: لا قلت: هذا أبو حريث عبدالله بن شهر السبيعي، وكان مضحاكاً بطالاً وكان ربما حبسه سعيد بن قيس الهمداني في جناية، فعرفه برير، فقال له: أما أنت فلن يجعلك الله في الطيبين: فقال له من أنت. قال: برير: فقال: أعزز علي هلكت والله: هلكت والله يا برير، فقال له برير هل لك أن تتوب إلى الله من ذنوبك العظام: فوالله انا لنحن الطيبون وأنتم الخبيثون، قال: وأنا والله على ذلك من الشاهدين. فقال ويحك أفلا تنفعك معرفتك. قال: جعلت

---

(١) سورة الأنفال: ٤٢.

(٢) سورة ال عمران : ١٧٨ ـ ١٧٩.

فداك، فمن ينادم يزيد بن عذره العنزي، ها هو ذا معي، قال: قبحك الله أنت سفيه على كل حال[1].

وشاهد ثاني أدلُّ وأوضح يؤكد لنا ما قلناه بأن كل من الطرفين يعرف الحالة التي هو عليها، هذا الشاهد هو حالة المناشدة التي ناشد بها الحسين جيش بن سعد، يقول المؤرخون: (وثب الحسين (ع) متوكياً على سيفه، فنادى بأعلى صوته، فقال.

أنشدكم الله هل تعرفوني؟ قالوا: نعم أنت ابن بنت رسول (ص) وسبطه، قال: .

أنشدكم الله هل تعلمون أن جدي رسول الله (ص)؟.

قالوا: اللهم نعم، قال:

أنشدكم الله هل تعلمون أن أمي فاطمة بنت محمد، .

قالوا: اللهم نعم.

قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن أبي علي بن أبي طالب (ع).

قالوا: اللهم نعم.

قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن جدتي خديجة بنت خويلد أول نساء هذه الأمة إسلاماً؟.

قالوا: اللهم نعم.

قال: فأنشدكم الله! هل تعلمون أن سيد الشهداء حمزة عم أبي؟.

قالوا: اللهم نعم.

قال: فأنشدكم الله هل تعلمون أن جعفر الطيار عمي؟.

قالوا: اللهم نعم.

---

(١) ابصار العين في أنصار الحسين ص ٧١.

قال: فأنشدكم الله هل تعلمون أن هذا سيف رسول الله وأنا متقلده.

قالوا: اللهم نعم.

قال: فأنشدكم الله هل تعلمون أن هذه عمامة رسول الله أنا لابسها.

قالوا: اللهم نعم.

قال: فأنشدكم الله هل تعلمون أن علياً كان أولهم إسلاماً وأعلمهم علماً وأعظمهم حلماً وأنه ولي كل مؤمن ومؤمنة؟.

قالوا: اللهم نعم.

قال: فيم تستحلون دمي؟ وأبي الذائد عن الحوض غداً يذود عنه رجالاً كما يذاد البعير الصادر عن الماء، ولواء الحمد في يد جدي يوم القيامة.

قالوا: قد علمنا ذلك كله ونحن غير تاركيك حتى تذوق الموت عطشا.

فأخذ الحسين (ع) بطرف لحيته وهو يومئذٍ ابن سبع وخمسين سنة ثم قال: اشتد غضب الله على اليهود حين قالوا عزيز ابن الله، واشتد غضب الله على النصارى حين قالوا المسيح ابن الله واشتد غضب الله على المجوس حين عبدوا النار من دون الله واشتد غضب الله على هذه العصابة الذين يريدون قتل ابن نبيهم[1] إذن كل ما قاله الحسين وناشدهم به هم يعلمون به فهم كانوا على بينة من أمرهم. فيوم عاشوراء يوم الفرقان بين أهل الحق وأهل الباطل.

---

(١) بحار الأنوار م ٤٤ ص ٣١٨ ـ ٣١٩.

أصناف الناس في يوم عاشوراء

يوم عاشوراء من أيام الفرقان الحاسمة، حيث صنّف الناس إلى صنفين وأحدث هزه عظيمة في المجتمع الإسلامي، وشطره إلى شطرين، شطر مع الحسين وشطر مع يزيد. وهذه الهزة لا نظير لها في التاريخ. فقد وقف رجال على شفير جهنم فانقذهم الله منها، وأدخلوا جنان الرحمن، وأخرون كادوا أن يطأوا أعتاب الجنان فدفعتهم رياح المحنة إلى قعر جهنم، فهذا التاريخ يحدثنا عن رجال خرجوا في جيش ابن سعد ثم في ميدان المعركة التحقوا بالحسين ونالوا وسام الشهادة بين يديه، منهم:

أسعد بن الحرث وأخوه أبو الحتوف بن الحرث الأنصاري خرجا مع ابن سعد فلما كان اليوم العاشر وقتل أصحاب الحسين، وسمعوا استغاثته وصراخ عياله وأطفاله مالا إلى جيش الحسين (ع) والتحقا به، ومنهم مسعود بن الحجاج التميمي وابنه عبد الرحمن خرجا مع ابن سعد والتحقا بجيش الحسين (ع). ومنهم بكر بن حي بن تيم بن ثعلبة التميمي كان ممن خرج مع ابن سعد إلى حرب الحسين (ع) حتى إذا قامت الحرب على ساق مال مع الحسين (ع) على ابن سعد فقتل بين يدي الحسين (ع) ومنهم جوين (جوير) بن هاني بن قيس خرج من الكوفة مع جيش بن سعد ولما وصل إلى كربلاء مال إلى جيش الحسين، ومنهم عمر بن ضبعة خرج إلى قتال الحسين ثم مال إليه.

هذه الهزة أخرجت أناساً من جيش ابن سعد إلى جيش الحسين.

وبالعكس، والعجيب في الأمر أخوان لأب واحد كل منهم ينحو إلى جبهة غير الجبهة التي ينحو لها أخوه مثلاً عمر بن قرظة الأنصاري جاء إلى أبي عبدالله (ع) أيام المهادنة في نزوله بكربلاء قبل الممانعة وكان الحسين يرسله إلى عمر بن سعد في المكالمة التي دارت بينهما قبل ارسال شمر بن ذي الجوشن فيأتيه بالجواب حتى كان القطع بينهما بوصول شمر فلما كان اليوم العاشر من المحرم استأذن الحسين ثم برز وهو يقول:

قد علمت كتائب الأنصار أني سأحمي حوزة الذمار
فعل غلام غير نكس شار دون حسين مهجتي وداري

قال الشيخ ابن نما قصد بقوله دون حسين مهجتي وداري فإنَّهُ عرّض بعمر بن سعد فإنه لما قال له الحسين صر معي قال: أخاف على داري.. إلخ.

ثم قال الشيخ ابن نما: فجعل (عمرو بن قرضة) يتلقّى السهام بجبهته وصدره فلم يصل الحسين (ع) سوء حتى أثخن بالجراح فالتفت إلى الحسين (ع) فقال: أوفيت يا بن رسول الله؟ قال نعم أنت إمامي في الجنة، فاقرأ رسول الله (ص) السلام واعلمه أني في الأثر فخر قتيلا رضوان الله عليه.

(ولما قتل عمرو بن قرضة خرج أخوه علي بن قرضة وكان في جيش بن زياد، ونادى يا حسين يا كذاب أغررت أخي وقتلته، فقال له الحسين (ع) لم أغر أخاك ولكن هداه الله وأضلك. فقال عليّ: قتلني الله إن لم أقتلك أو أموتَ دونك ثم حمل على الحسين (ع) فاعترضه نافع بن هلال فطعنه حتى صرعه فحمل أصحابه عليه واستنقذوه)[1] هكذا يفعل الصراع يفرز الناس إلى صفين بل يمتد حتى إلى العائلة الواحدة فيقسمها.

وعندما نقرأ المواقف والأشعار الرجزية في معركة الطف نلتقي بثلاثة أصناف من الناس:

---

(١) ابصار العين في أنصال الحسين ص ٩٢.

١ ـ صنف اعتذر وهو غير مستعد أن يضحي ولو بداره وضيعته كابن سعد وأمثاله.

٢ ـ صنف يفر من الكوفة ويتبرع للحسين بفرسه وسيفه كعبيدالله بن الحر وهؤلاء أهون شراً من ابن سعد.

٣ ـ صنف يفدي الحسين بكل شيء بنفسه ومهجته وماله وبكل شيء، والله تعالى يريد هذا الصنف من الناس وهكذا كان أصحاب الحسين الاثنان والسبعون وهم نخبة أهل الأرض في عصر الحسين (ع).

هذا هو الفرقان الذي يفرق بين أخوين فيجعل أحدهما في أعلى عليين، والثاني في أسفل السافلين من درك الجحيم واليوم نستطيع أن نفهم الفرقان بشكل جلي حيث يقتل أخوان أحدهما في جبهة الحق، والآخر في جبهة الباطل وخلاصة الكلام: عاشوراء صنّف الناس إلى صنفين، صنف الطيبين، وصنف انحدروا إلى الحضيض.

أنواع التصنيف:

هناك نوعان من التصنيف تصنيف صادق وتصنيف كاذب.

التصنيف الصادق هو تصنيف الناس على أساس ولاءاتهم وأما التصنيف الجاهلي فيقوم على أساس قومي أو عشائري أو إقليمي أو اقتصادي والاستكبار العالمي يحاول أن يسلط الأضواء على التصنيف الثاني، ولذا نراه يركز على العنصر القومي والوطني، وهذا يحتاج إلى جهد إيجابي وجهد سلبي.

أما الجهد الإيجابي أن يركز على الولاء للتراب والوطن والقومية والعشيرة لتغطية الولاء لله ورسوله والمؤمنين، وقد بذل الاستكبار العالمي جهوداً ضخمة لابراز هذه الولاءات الكاذبة ولذلك فرقوا المسلمين إلى قوميات وأوطان وقوميات.

في حالات الصراع الحقيقية تختفي الولاءات الكاذبة وتتبخر وتبرز الولاءات الحقيقة مرة أخرى، مثلاً الاستكبار العالمي يحاول ابراز الحرب الحالية[1] بين الإسلام وحزب البعث الصليبي بأنها حرب عراقية إيرانية، أو عربية فارسية، ولا نريد أن نسلط الأضواء على هذا الجانب الآن، لكن نقول:

إننا نرى في الجبهة الإسلامية عراقيين وايرانيين يقاتلون صفاً واحداً وفي جبهة البعثين نرى ايرانيين يقاتلون إلى جنب البعثيين انظروا كيف تمزقت الولاءات الكاذبة ورجع الناس إلى ولاءاتهم الحقيقية.

السياسية الأموية حاولت إبراز الولاءات الكاذبة القائمة على أساس قومي، عرب وموالي أو على أساس عشائري ربيعة ومضر، بينما الإسلام حاول أن يبرز محوري المهاجرين والأنصار يقول تعالى:

﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾[2].

﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾[3].

وبنو أمية لا هم من الأنصار ولا هم من المهاجرين وإنما هم طلقاء دخلوا الإسلام ليحقنوا دمائهم فحاولوا أن يضيّعوا هذين المحورين وأن يبرزوا المحور القومي والعشائري كما أشار بذلك عمرو بن العاص على معاوية وطلب منه أن يرجع الناس إلى أنسابهم.

---

(١) كانت هذه المحاضرات في أيام الحرب بين حزب البعث الصليبي وبين الجمهورية الإسلامية.

(٢) سورة التوبة: ١٠٠.

(٣) سورة التوبة: ١١٧.

فالذي حدث في كربلاء من أهم مميزاته هذا الفرز العظيم الذي أرجع الناس إلى ولاءاتهم الحقيقة فالذين يوالون الله ورسوله جاءوا إلى الحسين، والذين ولائهم للطاغوت مالوا إلى جيش ابن زياد، ومن هنا نجد أن أنصار الحسين (ع) كانوا موزعين على كل الساحة الإسلامية فمنهم عرب، ومنهم موالي ومنهم أغنياء ومنهم فقراء، فهؤلاء الذين استشهدوا مع الحسين هم صفوة الأمة الإسلامية.

ثورة الحسين صراع
بين الولاء لله وبين الولاء للطاغوت

في حضارة الإنسان، وفي مسيرة التاريخ توجد بؤرتان بؤرة الولاء وبؤرة البراءة، وهما موجودتان في كل ساحة اجتماعية.

ونحن لا نستطيع أن نتحدث عن معركة الطف ونصفها بكلمة أصدق وأدق وأشدّ اختصاراً من أن نقول: إن معركة الطف هي: صراع بين الولاء لله وبين الولاء للطاغوت وهذان الولاءان تقابلا وتصارعا في هذه الساحة، وبقدر الفارق بين الولائين نجد فارقاً في دائرة كل منهما في القيم والمبادىء والمعاني، فدائرة الولاء لله تنطوي على أسمى القيم وأشرف المعاني في حضارة الإنسان، ودائرة الولاء للطاغوت تضم بين دفتيها على أحط المعاني، والأهداف والمبادىء وبتعبير آخر أحداهما هي دائرة النور، والأخرى دائرة الظلام يقول تعالى ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ إذن أولياء الله دائماً في دائرة النور. ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ فأولياء الطاغوت دائماً في دائرة الظلام ولكل من الدائرتين خصائصها المميزة لها. فدائرة النور تتميّز بالوضوح وسلامة القلب وطهارة القصد والاخلاص واليقين بوعد الله وبالعلم والإيمان أما الدائرة الثانية تتسم بالشك والابهام واللف والدوران، والاعوجاج والانحراف، وعندما ينتقل الإنسان من دائرة إلى أخرى فكأنما ينتقل من عالم إلى عالم آخر يختلف عن عالمه الأول في تصوراته وأهدافه وحركته، فالفاصل بين الجبهتين جبهة الحسين وجبهة

يزيد لا يزيد على ميل واحد على الأرض لكن الفاصل بين الجبهتين في التصورات والقيم والأهداف والمنطلقات فاصل واسع عميق الولاء هو الذي يشكل النسيج الحقيقي لأي حضارة كانت، كما يدخل في بناء الأمة أي أمة سواء كانت على هدى أو على ضلال وعندما لا يدخل الولاء في تكوين الأمة ونسيجها فلا تكون تلك المجموعة أمة. ففي المصطلح القرآني الأمة هي التي يربط أفرادها عنصر الولاء ويدخل في نسيج شبكة العلاقات فيما بين أفرادها. فعندما يدخل عنصر الولاء بين أفرادها سواء كانوا على حق أو على باطل فإنهم يشكلون أمة. فإذن الولاء والبراءة يدخلان في نسيج كل أمة وللولاء لله نسيجه الخاص لله أو للطاغوت نسيجه الخاص وقد تختلف أنسجة الولاء للطاغوت من أمة إلى أخرى مثلاً الولاء للطاغوت الأمريكي نسيجه الخاص والولاء لروسيا له نسيجه الخاص فهما يختلفان في تركيبهما ونسيجهما ولكن يجتمعان في حقيقة واحدة هي البراءة من الله ومن أوليائه.

وفي هذين النسيجين الولاء لله والولاء للطاغوت حقيقتان.

الأولى: الجاذبية الموجودة بين أفراد كل واحدة من هذين الولائين، وبتعبير القرآن الكريم ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ في جانب الولاية بين المؤمنين يقول تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾، وفي نسيج الإيمان والولاء بين المهاجرين والأنصار يقول تعالى: ﴿والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾[1].

وفي نسيج الولاء للطاغوت يقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة يقول تعالى: ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾[2].

الثانية: بعضهم من بعض وهذه الحقيقة مقررة في قوله تعالى:

---

(١) سورة الأنفال: ٧٢.

(٢) سورة الأنفال: ٧٣.

﴿والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾[1] نسيج النفاق متجانس بعضه يشبه البعض الآخر. (والمنافقون والمنافقات في طينة واحدة وطبيعة واحدة في كل زمان وفي كل مكان تختلف أفعالهم وأقوالهم، ولكنها ترجع إلى طبع واحد، وتنبع من معين واحد، سوء الطوية ولؤم السريرة والغمز والدس والضعف عن المواجهة والجبن عن المصارحة...»[2].

وبناء على ما قدمنا تتبين لنا الحقيقة وهي أن التصنيف الحقيقي هو التصنيف المبني على أساس الولاء.

وكما أن البقاء للكيانات القائمة على أساس الولاء، سواء كان ولاء الإيمان أو ولاء الكفر، فإن النفور الحقيقي هو نفور البراءة، ففي التاريخ حروب بين القوميات، لكن هذه الحروب لا تشكل نفوراً حقيقياً، لأن النفور الحقيقي لا يتحقق إلا بالبراءة فعندما تفترق الولاءات ويتشكل ولاءان يحدث صراع بينهما، فيدخل عنصر البراءة فَيُحدث النفور الحقيقي بينهما، وبتعبير آخر النفور والخلاف الموجود بين النسائج في التاريخ هو نزاع وليس خلاف والفرق بين النزاع والخلاف أن طرفا النزاع يمكن أن يصطلحا ويجتمع الطرفان في يوم ما، وأما في الخلاف فلا يمكن أن يصطلحا ويجتمعا، ولذلك لا يمكن أن نسمي الحروب التي حدثت أو تحدث بين الطواغيت من غير أصحاب الولاء بأنها خلاف ونفور، فهم يختلفون حول مال أو سلطان أو قضية حيثية معينة ويمكن حل هذا النزاع وأما صراع الخلاف فلا يمكن حله. ولذا استحدث مفهوم البراءة، ومن هنا قلنا إن افتراق الولاءات وتصادمها هو أساس الصراع في التاريخ وقلنا نحن نختلف عن الماركسيين في مفهوم الصراع فالماركسية تعتبر الصراع بين الطبقات، أما نحن فنعتقد أن الصراع الحقيقي في التاريخ هو صراع الولاءات ولا ننفي الصراع بين الطبقات ولكنه قد يحدث ثم لا يوشك أن ينتهي فهو لا يستمر ولا يدوم.

---

(١) سورة التوبة: ٦٧.

(٢) في ظلال القرآن م ٤ ص ٢٤٩.

إذن حركة التاريخ والحضارة تدور مدار الولاء والبراءة، وإذا فهمنا الولاء والبراءة نفهم الحضارة والتاريخ.

فالبراءة وهي (الانفصال). والولاء وهو (الارتباط) ولكل منهما قوانين.

الناس عبيد الدنيا

قال الإمام الحسين (ع):

«الناس عبيد الدنيا والدين لَعِقٌ على ألسنتهم يحوطُونه ما درّت معايشهم، فإذا محصوا بالبلاء قل الدّيّانونَ».

في الحياة الإنسانية إتجاهان: (الدين) و (الدنيا) والناس يتوزعون على هذين الاتجاهين. وقد تحدثنا عن بؤرة الدين وعبرنا عنها بالولاء لأن الولاء فيه خصوصية الفرز والوصل، فالولاء له يجذب الموالين لله، ويطرد الموالين للطاغوت وله خاصية (التجميع) و (التفريق) و (الوصل) و (الفصل) هذا هو مفهوم الولاء أو الدين.

وأما الاتجاه الثاني: هو الاتجاه الدنيوي، فهو أيضاً يجمع ويفرق، فعلى ساحة الحياة الاجتماعية نسميها الدنيا، وفي داخل النفس نسميها الهوى، والدنيا هي الحالة المصلحية النفعية التي تجذب الناس في مقابل الدين، وفي بؤرة الدنيا الحب والبغض لا يقومان على أساس المبادىء، وإنما على أساس المصالح والمنافع، كما في الكلمة المعروفة لتشرشل: بريطانيا ليس لها أصدقاء دائمون ولكن لها مصالح دائمة وهذا ما يصفه الإمام (ع) بأنه دنيا والناس عبيده، فكأنّه يقول: الناس عبيد مصالحهم ومنافعهم وأهوائهم.

إذن الدين والدنيا كل منهما يجمع الناس ويفرقهم فعبيد الدنيا يجتمعون على الدنيا، ومن أجلها يتنازعون ويتفرقون فهم كالذباب على

الحلوى أو القمامة، وأولياء الله يجمعهم حب الله ورسوله، والتجميع والتفريق في كليهما له ملاك يختلف عن ملاك الآخر في كل منهما، ولو درسنا صورة مغلقة بيضوية وحاولنا أن نرسم تقاطعاً لكل من البؤرتين نجد أن الدين يجمع المتدينين، وأن الدنيا تجمع بين المتدينين وغير المتدينين على صعيد واحد، وأحياناً تفرق بين المتدينين أنفسهم.

وخلاصة الكلام: إن لكل من هاتين البؤرتين نسيجه الحضاري الخاص به، ولكل منهما وجه إيجابي يجلب ووجه سلبي يدفع، كما أن لكل منهما أخلاقية خاصة به، فأخلاقية الدين لها خصوصية هي الحسم والقطع والرحمة واللين والايثار، والأخلاقية الدينوية لها ميزات أخرى كالمراوغة والخداع والتملق.

والدين والدنيا كل منهما يشكل تجمع خاص به فالدنيا لها تجمع خاص بها وكذلك الدين، ولكن كل منهما يريد أن يفتت الآخر، وفي أحيان كثيرة يختلط الولاء لله تعالى بالمصالح التي تشد الإنسان إلى الدنيا حيث يمتزج الولاء الحقيقي بالولاء للدنيا، وتجعل الإنسان يعيش صراعاً داخلياً. والتفتيت يفقد الولاء حالة التمركز فيفقد فاعليته في الحياة الدنيا وبالعكس فإن من يريد أن يوجه ويُقوّم محور الدنيا ويجمع الناس حوله، ولكنه يشطر الناس شطرين، شطر موالي لله، وشطر معادي لله، وعمل العناصر الموالية لله هي تصفية الولاء لله من العناصر الغريبة عنه التي تمتزج به.

إذن هناك اتجاهان، تكتل حول الدين وتكتل حول الدنيا والأول ينشط في حالة المحنة والشدة والعسر حيث أن المحنة ترجع الإنسان إلى الله تعالى، وأما التكتل الدنيوي فينشط في حالة اليسر والرخاء.

والأمر الأخطر عندما يدخل حب الدنيا باسم الدين أو قل يتخذ الدين وسيلة لتحقيق المأرب الدنيوية فحينئذٍ تشوش الخارطة التي يريدها الله، فيتداخل أصحاب الدين وأصحاب الدنيا. ونفس هذا التداخل قد يحدث في النفس الإنسانية ويجعلها تعيش الازدواجية والتلون أو التناقض

والمفارقات السلوكية.

ومما تجدّر الاشارة إليه: أنّا لا ندعوا إلى رفض الدنيا على طريقة الرهبانية والصوفية، ولا نقول أن الإنسان يجب أن يتخلى عن الدنيا، ولكن نقول أن الدين يجب أن يكون هو الحاكم والموجه لحياة الإنسان الدنيوية، والذي ننكره من الدنيا هو أن تكون هدفاً قائماً بذاتها، وتتحول إلى قطب رحىً في حياة الإنسان.

كما أننا لا ننفي فائدة الهوى في داخل النفس، بل نقول أنَّ له فائدة كبيرة شريطة أن يكون محكوماً بسلطان العقل والدين.

لا بد أن يختار الإنسان أحدهما أما الدين وأما الهوى ولاعادة تنظيم الخارطة السياسية والاجتماعية في واقع الحياة لا بد من شَطْرِ الناس شطرين متمايزين، ولاعادة تنظيم العوامل التي تكون محركة للنفس لا بد من تمحيص ليتبين أي العاملين هو الحاكم في حركة النفس وبعد ذلك نحتاج إلى فرقان بين هذين العاملين.

الامام الحسين (ع) يصور المجتمع الذي عاصره بشكل دقيق حيث اختلط فيه هذان العاملان: الدين والدنيا وفُقد الفرقان الفاصل والمميز بينهما وتحول الناس إلى (عبيد الدنيا) أي أن حب الدنيا ملك القلوب وأصبحت الدنيا هي الحاكمة، الناس يقبلون الدين، ولكن السلطان والحاكمية للدنيا، وأمّا الدين فهو (لعق على ألسنتهم) أي يأخذون منه بمقدار ما يلعق الإنسان بطرف لسانه الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، فلا يغذي الإنسان ولا يشبعه، كذلك عبيد الدنيا نلاحظ عليهم مظاهر التدين من صلاة ودعاء وذكر وصوم، وقد يرضى الناس عنه وهو راضٍ عن نفسه وهذه هي الداهية حيث أن هذه اللعقة تجعله لا يشعر بالحاجة إلى الدين، وأنها حاجة ضرورية في حياة الإنسان وأنه نظام شامل يجب أن يحكم الحياة، فهو يحب الدين ويشعر بأن له دين، ولكن هذا الدين لا يصنع شيئاً في حياته فهو كاللعقة من العسل على طرف اللسان.

والسبب في ذلك لأن الحاكمية للدنيا وليس للدين، وهذا النمط من المتدينين (يحوطونه ما درّت معايشهم) أي ما لم يصطدم بمصالحهم الدنيوية وما لم يضر بها، فما دامت دنياهم سالمة فهم متدينون فإذا تزاحم الدين والدنيا رفضوا الدين وتخلوا عنه وركنوا إلى الدنيا، فهم يلتزمون بالدين ولكن إلى الحد الذي لا يضر معايشهم، ومثل هذا المستوى من التدين لا ينفع ولا يريده الله تعالى، وهذا النمط من التدين عبر عنه القرآن بأنه عبادة الله على حرف فلا يستقر ولا يثبت يقول تعالى ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾[1] وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أن«جماعة كانوا يقدمون على رسول الله (ص) المدينة فكان أحدهم إذا صح جسمه ونتجت فرسه وولدت امرأته غلاماً وكثرت ماشيته رضي به واطمأن إليه، وإن أصابه وجع في المدينة وولدت امرأته جارية، قال: ما أصبت من هذا الدين إلا شراً. . .»[2].

وفي حالة التمحيص بالبلاء يكتشف الإنسان حقيقة رهيبة تلك الحقيقة هي ضحالة عمق الدين في حياة الكثير من الناس ممن يدعي أنه ملتزم به، وإنما يمكن اكتشاف عمق التدين في حالات التزاحم فقط. . ولا يكتشف التدين في حالات إمكانية الجمع بين الدين والدنيا، فإذا تزاحم الدين والدنيا واختار الإنسان الدين ورفض الدنيا اكتشفنا عمق التزامه وقوة تدينه والعكس صحيح، فالإنسان الذي لا يشكل الدين عمقاً في حياته، وإنما دينه لعق على لسانه ليس بديان ودينهم محكوم لدنياهم.

وهاتان الحقيقتان لا تكتشفان في وقت اليسر والرفاه وإنما يتم اكتشافهما في الهزات النفسية والزلازل الاجتماعية ومعلوم أن الإنسان في حالة الزلازل لا يستطيع أن يتدارك نفسه إذا كان بناؤهُ النفسي قائم على

---

(١) سورة الحج: ١١.
(٢) مجمع البيان ح ٨ ص ١١٩.

الخلط بين الدين والدنيا.

إذن لا بد من فصل، ولا بد من فرز ولا بد من فرقان بين الدين والدنيا، لفصل عامل الدين عن عامل الهوى في داخل النفس، فإذا تم الفصل فلا يمكن للإنسان أن يوازن بين الدين والدنيا، ولا يستطيع أن يأخذ الدين بيد، والدنيا باليد الأخرى.

لماذا الفرقان والفصل؟

الفرقان والفصل في الحياة الاجتماعية وفي داخل النفس من سنن الله تعالى في حياة الإنسان. يقول تعالى ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة﴾[1].

﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾[2].

﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾[3].

في داخل النفس وكذلك في داخل المجتمع طيبات وخبائث ولا يمكن أن نتصور طيباً أو خبثاً كل ما في النفس، فهناك نفوس طيبة فيها مزيج من الخبائث، وبالعكس هناك نفوس خبيثة وفيها مزيج وشوب من الطيب، فلا بد من الفصل بين الخبائث والطيبات في النفس والمجتمع وذلك لتحقيق الأمور التالية:

١ ـ لينطلق منهما تياران متميزان تيار من الطيبات إلى الجنة، وتيار من الخبائث إلى النار.

---

(١) سورة الأنفال: ٤٢.
(٢) سورة الأنفال: ٣٧.
(٣) سورة آل عمران: ١٧٩.

ولا تتصور غاية ومصير هذين التيارين من قبل المثوبات والعقوبات في الدنيا، فلا توجد سنخية بين المثوبات والعمل، وبين العقوبات والعمل، فالذي يعمل عملاً جيداً يعطى جائزة، لكن لا سنخية بين العمل والمثوبة، وبالعكس من يعمل عملاً سيئاً يعاقب بسجن أو يقتل، ولا سنخية بين العقوبة والعمل.

أما في الآخرة فالجنة طيبة تجتذب تيار الطيبات والنار خبيثة تجتذب تيار الخبائث فلا يمكن لتيار الخبائث أن يذهب إلى الجنة فالخبائث غايتها النار والطيبات غايتها الجنة، وبتعبير آخر نتيجة عمل الخبائث النار ونتيجة عمل الطيبات الجنة.

٢ ـ لا يتم الانتفاع من الطيبات إلا بعد فرزها من الخبائث، لأن الطيبات إذا وضعت مع قليل من الخبائث فإنها تفسد.

٣ ـ لِيُعرّفَ الله الإنسان بنفسه، ويتمَّ الحجة عليه ولا تتم الحجة حتى يعلم المجرم بأنه مجرم ﴿ليهلك من هلك عن بينة..﴾.

وهكذا عزل عاشوراء اثنين وسبعين زهرة طيبة من ركام من الخبائث من المجتمع الذي عاصره الحسين (ع).

فيوم عاشوراء يوم فرقان بين الطيبات وبين الخبائث.

ظاهرة الاستنصار والاستغاثة في ثورة الحسين

في ثورة الحسين تبرز ظاهرتان وهما.

١ ـ ظاهرة الاستنصار والاستغاثة.

٢ ـ الترخيص لأصحابه والاذن بالانصراف.

إن الإمام (ع) كان يكرر الاستغاثة بالمسلمين وكان يصر على الاذن لأصحابه بالانصراف، وهاتان الظاهرتان تبدوان غريبتان في مسيرة الحسين (ع) ففي الوقت الذي كان يؤكد على أصحابه أن ينصرفوا ويتركوه وحده يكرر وفي أماكن مختلفة باستنصار المسلمين حتى المحاربين له في جيش بن زياد فما تفسير ذلك؟.

نحن لا نستطيع أن نفسر هاتين الظاهرتين حتى نعي بعمق ما طرحناه في مفهوم الفرقان، فالإمام (ع) في ظاهرة الاستنصار والأذن بالانصراف يقوم بعملية فرز للأمة، فهو يريد أن يستخلص الموجود في جيش بني أمية، والعناصر المحايدة الذين خرجوا من الكوفة فراراً من الوقوع في الفتن والتخلص من مشكلة حرب الحسين، كأمثال زهير بن القين، هذه هي التصفية الأولى في صفوف جيش بني أمية، وصفوف المتفرجين، والتصفية الثانية بين أصحابه ومرافقيه من مكة والمدينة الذين خرجوا حباً في الدنيا، والذين كانوا يأملون من الحسين (ع) أنه سينتصر وسيكون لهم

حظ كبير في حكمه، فلما رأوه أنه يؤكد بأنه سيقتل وليس معه دنيا، وإنما معه الموت والشهادة حينئذٍ انصرف الكثيريون منهم، في تلك التصفية بجانبيها: الترخيص بالانصراف، والاستغاثة والاستنصار قام الإمام بعملية غربلة وتصفية للأمة.

ثلاث مفردات:

في خروج الحسين (ع) نلفت النظر إلى ثلاث مفردات وهي تلقي الضوء على طبيعة مسيرة الإمام عليه السلام وأهدافها.

١ ـ رفض البيعة: فعندما خرج من دار الوليد بن عتبة والي المدينة، عزم على الخروج من المدينة، وفعلاً خرج إلى مكة مع جميع أهل بيته وأصحابه ليومين بقيا من رجب وفي خروجه كان يقرأ ﴿**فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين**﴾[1].

يؤكد المؤرخون أن الإمام (ع) خرج على الطريق العام بينما عبدالله بن الزبير خرج على الطرق الفرعية «فقيل له لو تنكبت الطريق كما فعل ابن الزبير كيلا يلحقك الطلب، قال: لا والله لا أفارقه حتى يقضي الله ما هو قاض»[2] إذن الإمام (ع) لم يكن فاراً ولا يريد أن يختفي من الساحة وإنما يريد أن يسلط الأضواء على حركته، وعلى رفضه لبيعة يزيد، وهكذا استمر حتى دخل مكة يوم الثالث من شعبان وكان يقرأ ﴿**ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديَني سواء السبيل**﴾[3].

ونزل مكة في دار العباس بن عبد المطلب وهي دار معروفة في أوساط مكة وكان أهل مكة والمعتمرون وأهل الآفاق يختلفون إليه في ذلك الوقت، وكان ابن الزبير فيمن يأتيه، ولكن وجود الحسين (ع) كان ثقيلاً

---

(١) سورة القصص: ٢١.

(٢) مقتل الحسين للسيد المقرم ص ١٤٠.

(٣) سورة القصص: ٢٢.

عليه، إذن كان الحسين في خروجه من المدينة ونزوله مكة بصورة علنية ولقاؤه بالناس يريد أن يعلن رفضه لبيعة يزيد على رؤوس الأشهاد.

٢ ـ قطع الطريق على الناصحين والمشفقين عليه بالتراجع أو الفرار إلى المناطق النائية، لم يهتم بتلك النصائح أو الجواب بجواب يتم عن إصرار وعزيمة ماضية لا تلين فعندما أعلن الإمام (ع) رفضه لبيعة يزيد تقدم الكثيرون إليه ونصحوه بلسان الاشفاق والتخوف عليه، وطلبوا منه أن ينسحب عن ساحة المواجهة، فامتنع (ع) عن تلبية طلباتهم، وكان من جملة الناصحين عبدالله بن عباس، فقال له: «إن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيك فيها شيعة وأنت عن الناس في عزلة فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعاتك فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي نحب في عافية.

فقال له الحسين (ع): يا ابن العم إني والله لأعلم أنك ناصح مشفق وقد أزمعت وأجمعت المسير[1].

وإذا تتبعنا بدقة مواجهته للناصحين نجد أنه كان يقطع على المناقشين المشفقين والناصحين الخائفين نصائحهم وطروحاتهم ويجيب بجواب قاطع بالسفر دون تردد، فإذن الإمام (ع) لا يريد الانسحاب من المواجهة وإنما كان يريد أن يعلم الناس بالموقف الشرعي من يزيد وبيعته، فيرد على عبدالله بن جعفر: (إني رأيت رؤيا فيها رسول الله (ص) وأمرت فيها بأمر أنا ماض له)[2] ويجيب أم سلمة: «يا أماه، وأنا أعلم أني مقتول مذبوح ظلماً وعدواناً، وقد شاء عز وجل أن يرى حرمي ورهطي مشردين، وأطفالي مذبوحين مأسورين مقيدين...»[3].

٣ ـ من خلال التأمل بمواقف الإمام وتصريحاته يتبين أنه كان يريد

---

(١) مقتل الحسين للسيد المقرم ص ١٦٩، الكامل لابن الأثير م ٤ ص ٣٩.
(٢) الطبري م ٥ ص ٣٨٨ طبعه دار التراث.
(٣) حياة الإمام الحسين ح ٣ ص ٣٢ (القرشي).

أن يدخل في مواجهة مسلحة ضد النظام الحاكم...

لما بلغ الحسين (ع) أن يزيد أنفذ عمرو بن سعيد بن العاص في عسكره، وأقره على الحاج وولاه أمر الموسم، وأوصاه أن يفتك بالحسين أينما وجد، عزم على الخروج من مكة، وكان ابن الزبير قد نصحه بالبقاء فيها وأوعده أن يكون من أتباعه، ومن المبايعين له ـ ونحن نشك في صدقه ـ فقال له الإمام (ع): إن أبي حدثني أن بمكة كبشاً به تُستَحلُ حرمتها فما أحب أن أكون ذلك الكبش، ولئن أقتل خارجاً منها بشبر أحب إلي من أن أقتل فيها..

ولما خرج ابن الزبير من عنده قال الحسين (ع): لمن حضر عنده (إن هذا ليس شيء من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز وقد علم أن الناس لا يعدلونه بي فودَّ أني خرجت حتى يخلو له)[1].

إذن الإمام يريد أن يفرض نفسه على النظام، ويريد أن يدخل في مواجهة علنية معه، ولا يريد أن يذهب دمه هدراً بعملية اغتيال عادية.

هذه المفردات الثلاثة تلقي الضوء على مسألة الاستنصار لجميع المسلمين، والاذن بالانصراف لأصحابه، وكيف فوّت الفرصة على النظام الأموي في تصفيته جسدياً.

بدأ الحسين (ع) حملة نوعية واستنصار واسعة في الحجاز والعراق، بل اسمع صوته وأوضح موقفه وموقعه من رسول الله لجميع المسلمين من خلال لقائه بوفود الحجاج من جميع بقاع المسلمين وبهذه الحملة ثَوَّرَ الناس على بني أمية، وأوضح خطرهم على الإسلام، وأوجب على المسلمين الخروج عليهم بصراحة، حيث حل احرامه وأعلن ثورته.

وهنا قد يثار تساؤل وهو ما معنى الاستغاثة والاستنصار وهو يعلم أنه مقتول.

---

(١) الكامل في التاريخ م ٤ ص ٣٨.

ذكر الشيخ جعفر التستري في كتابه الخصائص الحسينية وهو من الكتب الجيدة في تحليل السيرة الحسينية في ص ١٧٨ أن الحسين استنصر المسلمين سبعة مرات من مكة إلى كربلاء بلسان المقال وسبع بلسان الحال، ولذلك ورد استحباب التلبية سبع مرات وهو أن يقول الزائر (لبيك داعي الله) لأنه استنصر سبع مرات واستغاث سبع مرات.

ويمكن أن نحصي عدد المرات التي استنصر فيها من المدينة إلى كربلاء ثمّ نحللها بعد ذلك لنفهم سر الاستغاثة.

١ ـ في المدينة عندما كتب وصيته إلى أخيه محمد بن الحنفية ومن جملتها يقول: «فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن رد عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين».

٢ ـ من مكة كتب إلى رؤساء الأخماس بالبصرة وهم مالك بن مسمع البكري، والأحنف بن قيس، والمنذر بن الجارود ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم وعمرو بن عبيد بن معمر وأرسله مع مولى له يقال له سليمان وفيه:

أما بعد فإن الله اصطفى محمداً (ص) من خلقه وأكرمه بنبوته واختاره لرسالته ثم قبضه إليه وقد نصح لعباده وبلّغ ما أرسل به (ص) وكنا أهله وأولياءه وأوصياءه وورثته وأحق بمقامه في الناس فاستأثر علينا قومنا بذلك فرضينا وكرهنا الفرقة وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنّا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه، وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب.

«وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فإن السنة قد أميتت والبدعة قد أحييت فإن تسمعوا قولي أهدكم إلى سبيل الرشاد»[1].

٣ ـ عشية سفر الإمام (ع) من مكة إلى العراق حيث خرج ليلة الثامن ذي الحجة وهو يوم التروية وقد خطب في المسلمين خطبته المعروفة التي

---

(١) مقتل الحسين لعبد الرزاق المقرم ص ١٤١.

يقول فيها.

«الحمد لله، وما شاء الله ولا قوة إلا بالله، خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأون مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغبا لا محيص عن يوم خط بالقلم رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله لحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس، تقرُّ بهم عينه وينجز به وعده، من كان باذلاً فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل فإني راحل مصبحاً إنشاء الله»[1].

إن الحسين (ع) كان في مجموع استنصاراته صريح قاطع مصمم لا يعير للموت أية أهمية وغير متردد، بل اتسم بالحزم والعزم والتصميم والقطع، ومما يلفت النظر هذه اللوحة الطافحة بالدم والموت والشهادة التي يعرضها الإمام، وهو واضح في طرحه ودعوته ونشير إشارة سريعة إلى النقاط المهمة في هذه الخطبة.

أول كلمة (خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة) وهو يعلن المغادرة عن مكة، وكأنَّهُ يصور الموت بأنه حصار شديد لا يستطيع أحد أن يفكه عن نفسه فهل تستطيعون أن تفكوه عن أنفسكم فعلام التخوف من الموت بعز وشرف ثم يقول، وهذا الطوق ليس غلاً في أعناقكم ولا قيداً لأيديكم، وإنما هو قلادة وزينة وجمال للإنسان المجاهد وفرق كبير بين الغل والقيد وبين القلادة.

وعبارة أخرى (وخير لي مصرع أنا لاقيه) فهو يختار ما اختاره الله تعالى، والاختيار الصحيح هو ما يختار الله تعالى فعلينا أن نختار ما يختاره الله تعالى.

ثم يقول: وما أولهني، وهنا حديث مع النفس حيث يبدي الحنين

---

(١) مثير الأحزان لابن نما ص ٤١.

والشوق إلى أسلافه. ولذلك نجد في زيارته تخصيصه بأسلافه: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وعلي صلوات الله عليهم أجمعين كأنَّهُ يقول وهذه الدنيا تحجبني عن أسلافي.

ثم يقول: كأني بأوصالي تقطعها عسلان، هل تعرفون قائداً يستنصر بهذه الطريقة حيث يقدم لهم مثل هذه اللوحة الدامية، فلا نعرف على طول التاريخ قائداً يدعو بمثل هذه الدعوة الدامية.

وفي قوله (ع) (لا محيص عن يوم خط بالقلم...) اشارة إلى التسليم المطلق فليس هناك شيء خاضع لمشيئتنا فعلينا أن نسلم لله تعالى فنحن لا نستطيع أن نخرج من طوق المشيئة الإلهية، وهذه حالة انتقال من التسليم إلى الرضا، ثم يقول رضا الله رضانا أهل البيت وهو الذي يريده الله تعالى.

(لن تشذّ عن رسول الله لحمته) واللحمة هي (السدى) أو الخطوط العرضية في النسائج، وكأنَّهُ يقول نحن قطعة من رسول الله، وفلذة كبده وأنا من النسيج المحمدي بمثابة لحمته فالذي يريد أن يدخل في نسيج الرسالة فليأتي معي.

إذن توجد لحمتان ونسيجان، لحمة رسول الله ونسيجه، ولحمة بني أمية ثم يقول (ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته). والمهجة: دم القلب ولابقاء للنفس بعدما تراق مهجتها ومهجة كل شيء خالصته وروحهُ). وكأنَّهُ (ع) يقول: إن الذي له استعداد لبذل دمه فينا في سبيل الله فليرحل معنا إنها دعوة إلى بذل كل شيء، دعوة صارخة حمراء طافحة بالدم، لا يتلقى مثل هذه الدعوة بالقبول إلا من تعلق قلبه بالله تعالى كلياً ودون تردد، أو ريب أو شك بل كله شوق إلى لقاء الله تعالى، ولا نعرف قائداً دعى الناس إلى مثل هذه الدعوة حيث يطلب من الناس أن يبذلوا دمائهم في سبيل الله.

فهو لا يريد خوض معركة من نوع ما تعارف عليه الناس بل يدعو إلى فتح يصنعه الموت...

ومن الموارد التي استنصر فيها الحسين:

قام الحسين بعملية استنصار واسعة للمسلمين ونشير إلى بعضها على وجه الاختصار.

١ ـ الرسالة التي حملها قيس بن مسهر الصيداوي إلى أهل الكوفة.

٢ ـ استنصاره بعبدالله بن جعفر.

٣ ـ استنصاره بعبدالله بن عمر بن الخطاب عندما جاء إليه ناصحاً بالقعود والسكوت فقال (ع) له: اتق الله يا أبا عبد الرحمن ولا تدع نصرتي.

٤ ـ استنصاره بالحر وجيشه حيث خطب فيهم قائلاً: أيها الناس: إن رسول الله (ص) قال: من رأى سلطاناً مستحلاً لحرام الله ناكثاً عهده مخالفاً لسنة رسول الله (ص) يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وأن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله وأنا أحق بهذا الأمر إلى أن يقول: فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم ولكم فيَّ أسوة...[1].

٥ ـ استنصاره الجيش الأموي قبل القتال وبعد القتال في خطبته التي خطبها قبل القتال.

٦ ـ بعثه لحبيب بن مظاهر إلى قومه من بني أسد في كربلاء لاستنصارهم.

٧ ـ استنصاره في كربلاء بعد مقتل أصحابه وعزمه على لقاء القوم

---

(١) مقتل الحسين للمقرم ص ١٨٥.

بمهجته ونادى: هل من ذاب يذب عن حرم رسول الله؟ هل من موحد يخاف الله فينا؟ هل من مغيث يرجو الله باغاثتنا هل معين يرجو ما عند الله في اعانتنا»[1].

معاني وأبعاد الاستنصار الحسيني:

وعملية الاستنصار الحسيني تنطوي على ثلاثة معاني:

١ ـ الصفة السياسية.

٢ ـ الصفة النفسية.

٣ ـ الصفة الشمولية للاستنصار.

أما الصفة السياسية للأستنصار فنحن لا نستطيع أن نفهم الاستنصار فهماً دقيقاً دون أن نفهم موقعها من الفكر الإسلامي، ودون أن نفهم موضع النصرة والاستنصار من شبكة ومفهوم الولاء في الإسلام، فهي تربط الأمة بالإمام بالامتداد الطولي وبالعكس وتربط الأمة بعضها ببعض وهذه الشبكة تتكون من أربع عناصر وهي:

الحب، والطاعة، والنصرة، والحصانة

أما الحب فيربط الأمة بالله ورسوله والمؤمنين يقول تعالى ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكيم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿**والذين آمنوا أشد حباً لله**﴾[3] وأما الطاعة فيقول

---

(١) نفس المهموم ص ٣٤٩.

(٢) سورة التوبة: ٢٥.

(٣) سورة البقرة: ١٦٥.

تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر منكم﴾.

وأما النصرة: نصرة الله ورسوله وأوليائه في الخط الصاعد في شبكة الولاء، والتناصر في الخط العرضي في شبكة الولاء يقول تعالى: ﴿والذين أوَوْا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾[1].

وأما الحصانة فإن شبكة الولاء تغطي الإنسان عصمة وحصانة ما دام المسلم فيها، فليس لأحد أن يسيء إليه أو ينتقص منه يقول رسول الله (ص) (كُلُّ المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه).

ونسيج شبكة الولاء هي أمتن نسيج فقد يستطيع الإنسان أن يمزق كل نسيج إلا نسيج الولاء، ومن العجيب أن يضم إلى صفة القوة والإحكام اللطافة والحساسية لأنه يربط المسلمين إلى شبكة واسعة من الحقوق والمسؤوليات، هذه الحقوق والمسؤوليات تجعل من شبكة الولاء محكمة ومتينة عن أبي عبدالله (ع) أنه قال:

المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يخونه، ويحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل، والتعاقد على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة، وتعاطف بعضهم على بعض حتى تكونوا كما أمر الله عز وجل رحماء بينكم متراحمين، مغتمين لما غاب عنكم من أمرهم على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله (ص)»[2].

وفي حديث آخر: (المسلم أخو المسلم هو عينه ومرآته ودليله لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشه ولا يَعِدُه عدة فيخلفه)[3].

وعن المعلى بن خنيس قال سألت أبا عبدالله عن حق المؤمن فقال: سبعون حقاً لا أخبرك إلا بسبعة فإني عليك مشفق أخشى أن لا تحتمل قلت: بلى إنشاء الله فقال لا تشبع ويجوع، ولا تكتسي ويعرى، وتكون

---

(١) سورة الأنفال: ٧١.
(٢) الوسائل ج ٨ ص ٥٤٢.
(٣) الوسائل ج ٨ ص ٥٤٣.

دليله وقميصه الذي يلبسه ولسانه الذي يتكلم به وتحب له ما تحب لنفسك، وإن كانت لك جارية بعثتها لتمهد فراشه وتسعى في حوائجه بالليل والنهار، فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايتنا، وولايتنا بولاية الله».

ومن العجب أن هذه الشبكة من أشد الشبكات حساسية ولطافة ورقة، ففي العنصر الثالث والرابع إذا أراد المؤمن أن يرفع الحصانة عن أخيه المؤمن فقد خرج عن نسيج هذه الشبكة، وإذا أراد أن يخترق حصانة أخيه المؤمن في حضوره، أو في غيبته فقد خرج عن هذه الشبكة يقول الإمام الصادق (ع).

«إذا قال رجل لأخيه المؤمن: أف فقد خرج من ولايته وإذا قال: أنت عدوي كفر أحدهما ولا يقبل الله من مؤمن عملاً وهو مضمر على أخيه المؤمن سوءاً»[1].

وهذه الشبكة حساسة تجاه (النصرة) وكلامنا في اللحمة من نسيج الولاء، لزوم النصرة للمؤمنين، ورد عن أبي عبدالله (ع) (ما من مؤمن يخذل مؤمناً أخاه وهو يقدر على نصرته إلا خذله الله في الدنيا والآخرة)[2] وعنه (ع) قال) «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»[3] وهذا المسلم أينما كان في الهند أو الصين أو الفليبين أو أرتيريا أو في اي بقعة من العالم.

أما النصرة الموجودة في (السدى) الخطوط الطويلة فأعظم وأشمل وأقوى ما حُكِيَ عن الحسين (ع) في لقائين وقعا له في منزل قصر بني مقاتل وهما.

لقائه مع عبيدالله بن الحر الجعفي فقال له: (إن استطعت أن لا

---

(١) الوسائل ج ٨ ص ٥٤٦.

(٢) الوسائل ج ٨ ص ٦١١.

(٣) عقاب الأعمال للصدوق ص ٢٣٨.

تسمع صراخنا ولا تشهد وقعتنا فافعل فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ولا ينصرنا إلا أكبه الله في نار جهنم).

وفي مقتل الخوارزمي أنه قال لعبيدالله بن الحر: قد سمعت جدي رسول الله (ص) يقول: «من سمع بواعية أهل بيتي ثم لم ينصرهم على حقهم أكبّه الله على وجهه في نار جهنم»[1].

واللقاء الثاني في قصر بني مقاتل مع عمر بن قيس المشرقي قال دخلت على الحسين أنا وابن عم لي وهو في قصر بني مقاتل فسلمنا عليه فقال له ابن عمي: يا أبا عبدالله هذا خضاب أو شعرك؟ فقال (ع) خضاب والشيب إلينا بني هاشم يعجل ثم أقبل علينا فقال: جئتما لنصرتي، فقلت إني رجل كبير السن كثير الدين كثير العيال وفي أيدينا بضائع للناس ولا أدري ما يكون وأكره أن أضيع أمانتي وقال ابن عمي مثل ذلك قال لنا: فانطلقا فلا تسمعا لي واعية ولا تريا لي سواداً فإنه من سمع واعيتنا أو رأى سوادنا فلم يجبنا ولم يُعِنّا كان حقاً على الله عز وجل أن يكبه على منخريه في النار»[2] إذن الاستنصار في الخط الطولي هو النصرة، والاستجابة له شرط من شروط الولاء لأن ساحة الولاء لا تقبل المتفرج، وكلمة محايد ومستقل الموجودة في السياسة اليوم لا وجود لها في قاموس الولاية، فالإنسان أما موالي وأما معادي ولا برزخ بين الموقفين.

٢ ـ المعنى النفسي للاستنصار: عملية الاستنصار تنطوي على محاولة فصل العناصر الطيّبة من الأمة ومن جيش ابن زياد، ويريد الإمام عليه السلام أن يستنقذ هذه العناصر من الهلاك وعملية الاستنصار التي استعملها الإمام الحسين (ع) كانت على ثلاثة مراحل تارة يخاطب عقولهم وقلوبهم، وتارة يخاطب ضمائرهم فيقتحـها مثلاً يقول: (يا شيعة آل أبي سفيان إن لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً في دنياكم) وتارة يستثير

---

(١) مقتل الخوارزمي ص ٢٢٧.

(٢) ثواب الأعمال وعقاب الأعمال للصدوق ص ٢٥٩.

عواطفهم ويحركها فيقول: (أما من مغيث يغيثنا أما من ذاب يذب عنا).

وما مسألة أخذ الطفل الرضيع إلا استثاره للعواطف كأنهُ يقول: أما من رجل منكم يسقي هذا الطفل الصغير وفي المرحلة الثانية يقول خذوا هذا الطفل الصغير واسقوه كما يروي المحقق التستري في خصائصه.

فأذن الإمام يخاطب هؤلاء في ذوات عقولهم وقلوبهم وضمائرهم، وخطابه ليس من باب الاسترحام وطلب العطف منهم وإنما رحمة بهم.

إن العاطفة خزين مبارك، وأن الضمير هو القلعة الأخيرة التي تبقى تحمي الإنسان من تأثير الهوى والشيطان والسقوط، والعاطفة إذا جاشت وفاضت بالرقة والرحمة تلطّف القلب ولان، وإذا لان القلب وصح عاد العقل إلى رشده ووعيه فالمواقع الثلاثة مترابطة، فالقلب إذا اعتدل يعيد العقل، وكلاهما يمتزجان بالعاطفة والعاطفة أقوى عامل محرك في الإنسان، واثرى خزين للطاقة الحركية، فالعقل يفهم ويعي وينظم، والعاطفة تحرك وتدفع، والضمير يحرس ويحصّن الإنسان من السقوط ولذلك نجد أن القادة المغيّرين يهتمون باثارة العواطف.

والخلاصة إن الإمام الحسين (ع) كان يريد أن يستخلص آخر قطرة من العاطفة من نفوس هؤلاء ويستخرج آخر قبس من الوعي في نفوس الجيش الأموي وهو يعلم أن عذاب الله وسخطه قد حل بهم أو سيحل بهم، وبالرغم من هذا يريد إنقاذهم من الهلاك فهو مصداق حقيقي لقوله تعالى: ﴿وإذا قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا: معذرة إلى ربّكم ولعلهم يتقون﴾[1] فهو مثال نوح، ركب في السفينة وقومه قد أدركهم الغرق وبالرغم من هذا يدعوهم إلى الله، ويدعوهم لأن يركبوا معه وهم الذين آذوه تسعمائة وخمسون سنة، والحسين ليس بحاجة إلى الناس ولكن يحرص على أن لا ينالهم العذاب.

(١) سورة الأعراف: ١٦٤.

٣ ـ المعنى الشمولي للاستنصار:

نحن نستبعد أن يكون هدف الإمام من الاستنصار هو جلب الجيش الأموي، أو المتخلفين عنه فقط، وهو يعلم المستوى الذي وصلوا إليه من جفاف العاطفة، وموت الضمير، وما وصل إليه المجتمع من هبوط في الوعي، وهو الذي يصف الدنيا بأنها قد تغيرت وتنكرت، ولم يبق منها إلا صبابة، بهذا التصور الذي يحمله الإمام عنهم لا نستطيع أن نقول: هم المقصودون فقط من استنصار الإمام مع العلم أن الإمام كان يعلم بأنه مقتول لا محاله ولا يستطيع أحد من البشر أن ينقذه إذن من البعيد أن الإمام كان يقصد هؤلاء دون غيرهم.

فمن هم المقصودون الذين عناهم الإمام بهذا الاستنصار؟ إنّ مما لا شك فيه ولا ريب أن الإمام (ع) لم يطلب سلطاناً ولا يريد تحقيق قضية وقتية محدودة بحدود زمانه، وما جاء إلى الكوفة وتحمل كل هذه الفجائع التي لا نظير لها من أجل ذلك، وإنما الحسين حامل رسالة وخليفة خاتم النبيين ووارث جميع المرسلين يحمل همَّ قضية رسالية شاملة، وقد ذكرنا أن هدف الحسين (ع) هو انتزاع الشرعية من الخلافة الأموية وتحرير إرادة الإنسان، هذه القضية تخص أولئك الذين عاصروه أما المقصودون بخطابه فهي الأجيال القادمة إلى يوم القيامة، فهو يريد انتزاع الدعوة الإلهية من أيدي السلاطين، وأن لا تستحكم قبضة الجاهلية عليها، فإذن كل الأجيال المتعاقبة مشمولة باستنصاره ولذلك وردت التلبية في زيارة الحسين (ع) في أول رجب والنصف منه والنصف من شعبان:

«لبيك داعي الله إن لم يجبك بدني عند استغاثتك ولساني عند استنصارك، فقد أجابك قلبي وسمعي وبصري»... «ورأيي وهواي» «وحبي وبغضي» وهذا هو معنى الولاء وهو أن الإنسان نفسه وقفاً لمن يوالي، وزيارات الحسين تنطوي على هذا المعنى (معكم معكم لا مع عدوكم ولذا ينبغي أن ننظر إلى الحسين بنظرة أوسع من الدائرة الزمانية والمكانية فهو قضية عبر العصور والأزمان بل قضية الإنسان في جميع

العصور والأجيال، وهو يشكل جبهة مقابل كل جبهات الباطل على امتداد التاريخ الرسالي من نوح إلى رسول الله (ص) إلى يومنا الحاضر وإلى يوم القيامة، وكل الصراع الإسلامي ضد الاستكبار هو امتداد لتلك البراءة، فالحسين (ع) ولاء لله وبراءة من أعداء الله تعالى.

نظرة إلى مضامين الاستنصار:

نلاحظ أن الحسين (ع) في خروجه كان يكرر ذكر قصة يحيى بن زكريا، يقول المؤرخون إن عبدالله بن عمر بن الخطاب جاء إلى الحسين (ع) وأشار عليه بالطاعة والانقياد وحذرهُ من مشاقة أهل العناد. فقال: يا عبدالله أما علمت أن من هوان الدنيا على الله أن رأس يحيى بن زكريا (ع) أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل.... إلى أن قال: اتق الله يا أبا عبد الرحمن ولا تدعن نصرتي»[1].

وفي قصة يحيى بن زكريا خصوصية، وهناك تشابه بين قصة يحيى (ع) وقصة الحسين، والتشابه بين القصتين يشمل التفاصيل، ففي كلتا القصتين جرأةٌ على الله وتحدي لحدوده واستهتاراً بحرماته، وهذه أحياناً تتم بباعث هوى، أو شهوة ولكن ليس بصورة مباشرة، وأحياناً تتم بصورة مباشرة وبقصد الاساءة إلى سلطان الله والعدوان عليه، قضية يحيى (ع) وقضية الحسين (ع) فيهما جرأةٌ على الله فهي ليست شهوة ولا هوى ولا طلب مرضاة الخليفة وإنما هي جرأة على الله تعالى، والإمام في كلامه لعبدالله بن عمر يريد أن يقول ما أيسر الدنيا وأهونها على الله حيث يتسلط فيها هؤلاء الجبابرة المتجرؤون على الله، والله لا يصعب عليه أن ينتقم منهم، وإنما تركهم ولم يعجل لهم العذاب لأنهم في قبضته لا يفلتون منه، وإني أخاف عليكم مكر الله فأنتم مشايخ المسلمين، وأنا أرى العذاب مقبل عليكم، وهذا انذار خطير لابن عمر وأمثاله.

---

(١) مثير الأحزان ص ٤١.

وفي استنصاره (ع) اشارة إلى نزول العذاب، لأن عذاب الله لا ينزل إلا على مجتمع قاحل من الخير ميت الضمير، جاف العاطفة، خاوي الوعي والعقل.

ونؤكد أن العذاب ينزل بالأقوام عند نضوب الخير في المجتمع، ففي قصة نوح يلفت نظرنا آيتان وهما: ﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾[1].

هذه الآية انذار بالعذاب لأنه لم يبق في هذا المجتمع خير يرجى فيه صلاحهم.

وقوله تعالى: ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾[2].

ومعنى هذا أن نوحاً (ع) استنفذ كل وسائل الدعوة مع هؤلاء فلم تنفع معهم، ولم يبق أيّ رجاء في هدايتهم وايمانهم لأن الرحمة قد نفذت من قلوبهم والوعي قد فارق عقولهم وعندما يتحول المجتمع إلى حطب يابس فلا تنفع معه إلا النار والحسين (ع) يشير إلى هذه الناحية فيقول: (إنه قد نزل بنا ما قد ترون، إن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الاناء).

---

(١) سورة هود: ٣٦.

(٢) سورة نوح: ٢٦ ـ ٢٧.

نموذجان من المتخلفين عن الحسين (ع)

﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾[1].

الرسالة الإسلامية المباركة مرت خلال مسيرتها بمرحلتين من الصراع: صراع في مرحلة التنزيل، وصراع في مرحلة التأويل.

في المرحلة الأولى كان الصراع حول التنزيل، على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي المرحلة الثانية وقع الصراع حول التأويل في أول خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. ورحم الله عمار بن ياسر حيث كان يقول في المرحلة الثانية: «قاتلناكم على التنزيل واليوم نقاتلكم على التأويل».

ولا بد أن نعرف أن لكل صراع ثلاثة أطراف على حد سواء في المرحلتين: هذه الأطراف هي:

الطرفان المتصارعان، والطرف المتخلف عن الالتحاق بأحد الطرفين، ولكل من هذه الأطراف فهم خاص، ويحتاج إلى دراسة وتحليل، وعلينا أن نفهم الطرف الذي يدعو الله ورسوله، ما هي صفاته، وما هي مقوماته؟ والطرف الذي يحارب الله ورسوله ولماذا يحارب،

---

(١) سورة التوبة: ١١٨.

وكذلك يجب أن نفهم الطرف المتخلف المتفرج.

وهنا نتحدث عن الطرف المتخلف فقط.

لقد حدثنا القرآن الكريم عن المتخلفين عن المعركة في مرحلة التنزيل يقول تعالى.

﴿وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنّوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾[1][2].

وكما يوجد متخلفون في مرحلة التنزيل كذلك يوجد في مرحلة التأويل، وفي معركة الطف التي تعتبر من أهم الصراعات في مرحلة التأويل برز فيها الطرفان: المحاربون والمتخلفون مقابل الحسين (ع) ونحن نستعرضَ نماذج من المتخلفين، ونذكر الآن الضحاك بن عبدالله المِشرقي، هذا الرجل من الذين دخلوا المعركة مع الحسين وقاتل بين يديه وأحسن الدفاع عنه، ودعا الإمام له حينما كان يقاتل بقوله (ع): «لا تشلل، لا يقطع الله يدك، جزاك الله خيراً عن أهل بيت نبيك صلى الله عليه وآله».

ورغم ذلك لم يستطع مواصلة القتال حين أدرك أن الحسين (ع)

---

(١) سورة التوبة: ١١٨.

(٢) هذه الآية نزلت في شأن كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية وذلك أنهم تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يخرجوا معه لا عن نفاق ولكن عن توان ثم ندموا فلما قدم النبي (ص) المدينة جاءوا إليه واعتذروا فلم يكلمهم النبي وطلب إلى المسلمين بأن لا يكلموهم فهجرهم الناس حتى الصبيان وجاءت نساؤهم إلى رسول الله (ص) فقلن له: يا رسول الله نعتزلهم؟ فقال: لا ولكن لا يقربوكن فضاقت عليهم المدينة، فخرجوا إلى رؤوس الجبال، وكانت أهاليهم يجيئون لهم بالطعام ولا يكلموهم، فقال بعضهم لبعض: قد هجرنا الناس ولا يكلمنا أحد منهم فهلا نتهاجر نحن أيضاً فتفرقوا ولم يتجمع منهم اثنان وبقوا على ذلك خمسين يوماً يتضرعون إلى الله تعالى ويتوبون إليه فقبل الله توبتهم وأنزل فيهم هذه الآية» مجمع البيان م ٥ ص ١٢٠.

مقتولاً لا محال. استأذن الحسين، وهرب من ساحات القتال ورجلاه تكادان أنْ تطآ أعتاب الجنة وكان قد دخل مع الحسين ضمن شروط سوف تتضح لنا من خلال سرد قصته مع الحسين (ع).

قال أبو مخنف: حدثنا عبدالله بن عاصم الغائشي ـ بطن من همدان ـ عن الضحاك بن عبدالله المِشرقيّ، قال: قدمت ومالك بن النضر الأرجي على الحسين، فسلمنا عليه، ثم جلسنا إليه، فرد علينا، ورحب بنا، وسألنا عما جئنا له، فقلنا: جئنا لنسلم عليك، وندعو الله لك بالعافية، ونحدث بك عهداً، ونخبرك خبر الناس، وأنّا نحدّثك أنهم أجمعوا على حربك فما رأيك، فقال الحسين (ع): حسبي الله ونعم الوكيل! قال: فتذممنا وسلمنا عليه، ودعونا الله له، قال: فما يمنعكما من نصرتي؟ فقال مالك ابن النضر: علي دين، ولي عيال، فقلت له: إن علي ديناً، وإن لي عيالاً، ولكنك إن جعلتني في حل من الانصراف إذا لم أجد مقاتلاً قاتلت عنك ما كان لك نافعاً، وعنك دافعاً! قال: فأنت في حل، فأقمت معه»[1] فبقي معه إلى يوم العاشر من المحرم ولما دارت المعركة على الإمام الحسين (ع) وقتل أصحابه تذكر شرطه الذي شرطه عند دخوله المعركة حيث يقول:

ولما رأيت أصحاب الحسين (ع) قد أصيبوا، وقد خلص إليه وإلى أهل بيته، ولم يبق معه غير سويد بن عمر بن أبي المطاع الخشعمي وبشير بن عمر الحضرمي، قلت له: يا بن رسول الله، قد علمت ما كان بيني وبينك؛ قلت لك أقاتل عنك ما رأيت مقاتلاً، فإذا لم أر مقاتلاً فأنا في حل من الانصراف؛ فقلت لي: نعم قال: فقال: صدقت، وكيف لك بالنجاة! إن قدرت على ذلك فأنت في حلّ؛ قال: فأقبلت على فرسي وقد كنت حيث رأيت خيل أصحابنا تعقر، أقبلت بها حتى أدخلتها فسطاطاً لأصحابنا بين البيوت، وأقبلت أقاتل معهم راجلاً، فقتلت بين يدي الحسين رجلين وقطعت يد آخر، وقال لي الحسين يومئذٍ مراراً لا تشلل، لا يقطع الله

---

(١) تاريخ الطبري م ٥ ص ٤١٨ طبعة دار التراث.

يدك، جزاك الله خيراً عن أهل بيت نبيك (ص) فلما أذن لي استخرجت الفرس من الفسطاط ثم استويت على متنها ثم ضربتها حتى إذا قامت على السنابك رميت بها عرض القوم، فأفرجوا لي، واتبعني منهم خمسة عشر رجلاً حتى انتهيت إلى شُفَيَّة، قرية قريبة من شاطىء الفرات، فلما لحقوني عطفت عليهم فعرفني كثير بن عبدالله الشعبي وأيوب بن مشرح الخَيْواني وقيس بن عبدالله الصائدي فقالوا هذا الضحاك بن عبدالله المِشرقي، هذا ابن عمنا، ننشدكم الله لما كففتم عنه! فقال ثلاث نفر من بني تميم كانوا معهم، بلى والله لنجيبن اخواننا وأهل دعوتنا إلى ما أحبوا من الكف عن صاحبهم، قال: «فلما تابع التميميون أصحابي كف الآخرون، قال: فأنجاني الله»[1].

هذه خلاصة قصة الضحاك ونريد أن نقف الآن عند هذا الخبر ونحلل ما فيه.

يظهر من الرواية أن الرجلين كانا من العارفين بحق الحسين، وحرمته في الإسلام وموقعه من رسول الله (ص) ولذلك يقول الضحاك.

«فتذممنا منه وسلمنا عليه ودعونا الله له» والتذمم بمعنى حفظ الذمام والحرمة، والالتزام بالعهد والحق، فهما في قرارة أنفسهما عارفان حق الحسين وحرمته على ذمة كل مسلم، كل ذلك ظهر من خلال زيارتهما ولقائهما الحسين، وحديثهما معه. فلما أرادا الانصراف استنصرهما الحسين (ع) وقال لهما «فما يمنعكما من نصرتي؟» ونلاحظ أن الحسين (ع) لم يدعهما إلى نصرته وإنما وجه الخطاب لهما بصيغة الاستفهام. وكأنَّهُ وجّه النداء إليهما كما وجهه لبقية المسلمين.

أما مالك بن النظر فقد ظهر على حقيقته من أول الأمر فأراح واستراح، معللاً موقعه أن عليه ديناً وله عيال، والعجيب أن السعادة الأبدية ترفرف على رأس إنسان فيعرض عنها ويرفضها ويقبل على الشقاء والخسران.

(١) الطبري م ٥ ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥.

أما الضحاك فإن جوابه للحسين يحتاج إلى تحليل، وفيه نقاط ملفتة للنظر.

الأولى: يعتذر للإمام كصاحبه بالدين والعيال، ثم يستجيب لنداء الإمام ولكن بشروط يضعها ليفلت من الالتزام القاطع على نفسه.

والاعتذار الذي يقدمه للإمام بأن عليه دين وله عيال، ويفضلهما على نصرة دين الله تعالى.

إن المال والعيال من سنن الله تعالى في المجتمع فقلما نجد إنساناً ليس له عيال وليس عليه دين وهذان الأمران وجهان للحياة الدنيا والعيال تعبير عن تعلق الإنسان بالدنيا، وهو ما يسميه القرآن الكريم بالشهوات ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المئاب﴾[1] والوجه الثاني للحياة الدنيا، التبعات والمسؤوليات التي عبر عنها الضحاك (بالدين) فهو تبعة ومسؤولية، والإنسان يتحمل التبعات والمسؤوليات من أجل نيل الشهوات، ولا بد للإنسان منهما معاً ولا بد أن يتعامل معهما معاً ولا يشذ عن هذا إلا النادر من الناس.

إذن القيد الذي أقعد الضحاك عن نصرة الحسين وحرمه من الشهادة بين يديهِ وأفقده السعادة الأبدية هي التعلقات والشهوات والتبعات والمسؤوليات .

إن الإسلام لا يدعونا ولا يطلب منا ألاّ نحمل هذه الشهوات بصورة كلية، بل الإسلام دعانا إلى التحرر منها، وبعبارة أخرى: إنَّ الإسلام خول لنا التعامل مع الوجهين معاً، نتزوج. ونتعلق بالنساء والبنين. وننال من الدنيا حظنا ولا ننسى نصيبنا من الدنيا، وأن نتحمل التبعات والمسؤوليات وليس في القرآن دعوة إلى هجران هذا ولا ذاك وإنما دعانا

---

(١) سورة آل عمران: ١٤.

إلى التحرر، وبتعبير أدق أن الإسلام أراد من المؤمن أن يملك الدنيا ويتمتع بها، وينال نصيبه منها كاملاً غير منقوص شريطة أن لا تملكه وتستهويه، وتستعبده فتكون هي في خدمته ولا يكون هو في خدمتها وهذا هو معنى التحرر من الدنيا. لذا كان زهير بن القين يملك الدنيا بكل صورها عيال ومال وجاه وسمعة ولكن حين دعاه الواجب الإلهي لنصرة الحسين تحرر عن ذلك كله، فزهير والضحاك كلاهما له عيال وعليه تبعات ولكن الفرق أن زهير تحرر من قيود العيال والديون، ولذلك وبمجرد أن انحاز إلى الحسين (ع) قطع كل علاقاته بالدنيا وطلقها بنفس السهولة التي طلق فيها زوجته أما الضحاك فأمره يختلف عن زهير من حيث طريقة تعامله مع الدنيا، ونحن نعتقد أن دنيا زهير كانت أوسع من دنيا الضحاك، لأن زهير كان زعيماً وشريفاً في قومه وله امكانيات واسعة ودنياه عريضة، ومع ذلك تخلى عن ذلك كله بيسر وسهولة وبقيت دنيا الضحاك تلاحقه حتى ظهر يوم العاشر.

النقطة الثانية: رغم اعتذار الضحاك لم يرفض دعوة الحسين، وبذلك امتاز عن صاحبه مالك بن النظر الأرحبي، وهذه نقطة مشرقة في حياته فهو ليس من الذين قال عنهم الفرزدق قلوبهم مع الحسين وسيوفهم عليه، وإنما كان قلبه منسجماً مع سيفه. قلبه وسيفه مع الحسين وهنا فرق بينه وبين زهير، فزهير لم يرغب لقاء الحسين أولاً أما الضحاك وصاحبه فقد ذهبا بنفسيهما والتقيا بالحسين (ع) فهما اذن يحبان الحسين أكثر من زهير، والضحاك يختلف عن صاحبه بأن سيفه وقلبه مع الحسين أما مالك فقلبه مع الحسين وسيفه عليه.

ومع هذا كله اشترط الضحاك على الإمام (ع) في دفاعه عنه وقتاله دونه شرطين.

الأول: إذا لم يجد مقاتلاً قاتل عنه، وما كان القتال دونه نافعاً له ودافعاً للموت عنه وهذا الكلام ينحل إلى شرطين: أن لا يكون هناك من

يغني في القتال عن الحسين (ع) (إذا لم أجد مقاتلاً عنك). ثم يحصر قتاله وموقفه في شرطين: أن لا يكون هناك مدافع أولاً، وثانياً أن يستطع أن يدفع الموت عنه فإذا لم يستطع فهو في حل، وكأنّه يريد أن يقول: إذا لم أستطيع أن أدفع القتل عن الإمام فلماذا أعرض نفسي للقتل معه، وهذا شرط غريب، ونحن عندما نحلل موقفه لا نشك في صدقه، وما كان يريد من قتاله دون الحسين دنيا، ولكن هناك نقص ملحوظ في موقفه، هذا النقص هو العطاء المشروط، وهو نوع من المساومة إنّهُ لم يبع نفسه لله كلياً ولم يدخل الساحة متجرداً عن الدنيا، فهو ليس من الطبقة ذات العطاء المطلق وإنما ذات العطاء المحدود الخاضع للشروط، والحسين لا يريد هذه الشريحة من الناس وإنما يطلب الذين يبيعون أنفسهم لله بدون قيد ولا شرط كما صرح عليه السلام بذلك في خطابه الذي ألقاه في مكة (ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته موطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإني راحل مصبحاً إنشاء الله)[1].

أما الشريحة التي تساوم وتشارط فلا تستطيع أن تساير الحسين لآخر الشوط، إذن عيب الضحاك المشرقي هو الشح في العطاء ولكن يبقى العطاء الشحيح خير من النضوب وعدم العطاء كلياً.

عندما نحلل شروط الضحاك مع الحسين (ع) نجد أن هذا الرجل يشعر بمسؤولية تجاه الحسين ولكن يبدو أن احساسه ضعيفاً ومحدوداً جداً هذا أولاً، وثانياً يحدد موقفه وعطائه للحسين ضمن اطار ضيق جداً، وبتعبير آخر أنه يخضع عمله وعطائه لله تعالى ضمن معادلة دقيقة جداً وفي غاية الدقة، وهناك شريحة من المسلمين تشعر بالمسؤولية ولكنه شعور محدود وضمن حسابات دقيقة والضحاك من هؤلاء.

وهناك شريحة أخرى، تعطي بدون حساب وتدقيق وانتظار ثواب أو خوف من عقاب بل تعطي كل شيء لأنها تشعر أنها ملك لله تعالى ولا

(١) مقتل الحسين المقرم ص ١٦٦.

تملك من أمرها شيئاً، يقول تعالى:

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾[1].

فهذه الآية توضح طريقة تعامل هذه الشريحة مع الله تعالى، فهذه الشريحة من خلال ايمانها وعت أنها ملك لله تعالى، وأنها لا تملك من الدنيا شيئاً وإنما هي وما تملك ملك لله تعالى. والآية كذلك توحي أن عملية الشراء والبيع قد تمت منذ تعامل الإنسان مع الله تعالى، وجاء بصيغة الماضي لا بصيغة المضارع حتى يستطيع الإنسان أن يساوم ويشترط، ومن هنا قال بعض أصحاب رسول الله (ص). عندما بايعوا رسول الله (ص) وقالوا له: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال: «اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي أن تمنعوني ممّا تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا: فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة» قالوا: «ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل»[2].

«إن الله ـ سبحانه ـ قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم؛ فلم يعد لهم منها شيء، لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيله لم يعد لهم خيار في أن يبذلوا أو يمسكوا، كلا إنها صفقة مشتراة لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء وفق ما يفرض، ووفق ما يحدد، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم، لا يلتفت ولا يتخير ولا يناقش ولا يجادل ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام والثمن هو الجنة والطريق هو الجهاد والقتل والقتال والنهاية هي النصر أو الاستشهاد»[3].

---

(١) سورة التوبة: ١١١.

(٢) في ظلال القرآن م ٤ ص ٣١٥.

(٣) المصدر السابق.

فإذا كان الإنسان بايعاً، والثمن مقبوض وموجود وهو «الجنة» فلماذا يقتّر الإنسان في عطائه لله تعالى...

هاتان شريحتان من الناس والله يتعامل مع كل منهما بطريقة تختلف عن الأخرى، فالتي تعطي لله تعالى بحساب فالله يعطيها بحساب، ويعطي للثانية بلا حساب لأنها تعاملت بلا حساب.

وكما أن الله تعالى له حساب مع هؤلاء وأولئك في الحسنات، فله أيضاً نوعين من الحساب في السيئات مع كل من الشريحتين.

النوع الأول: التيسير في الحساب والنوع الثاني: التشديد في الحساب. يقول تعالى:

﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه، فسوف يحاسب حساباً يسيرا...﴾[1] هذا الحساب اليسير للذين يعطون لله تعالى بلا حساب، فالله تعالى يحاسبهم على سيئاتهم حساباً يسيرا فلا يطول وقوفهم للحساب ولا يشدد عليهم. ويعفو عنهم ويسامحهم.

وهناك نوع من الحساب وهو حساب الذين يقترون في عطائهم ويبخلون على الله بما آتاهم يقول تعالى ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورُسله فحاسبناها حساباً شديدا﴾[2] هذا في السيئات أما في الحسنات. فثواب الله تعالى كما وصفه في كتابه الكريم بأنه غير ممنون.. وكبير... وعظيم... وكريم... وحسن فهو غير ممنون: ﴿وإن لك لأجراً غير ممنون﴾[3].

وهو كبير: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم مغفرة وأجر كبير﴾[4].

---

(١) سورة الانشقاق: ٧ ـ ٨.
(٢) سورة الطلاق: ٨.
(٣) سورة القلم: ٣.
(٤) سورة فاطر: ٧.

﴿فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجرٌ كبير[١]﴾.

وهو عظيم ﴿للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾[٢].

﴿وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾[٣].

وهو كريم: ﴿من ذا الذين يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم﴾[٤].

وهو حسن ﴿فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً﴾[٥].

ومع هذه الصفات الخمسة لعطاء الله وثوابه ينافي أن يكون لله نوعان من الأجر: أجر محدود وأجر غير محدود وغير محسوب، نحن نقرأ قوله تعالى ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[٦] فمن يعمل مثقال حسنات فله مثقال أو عشر مثاقيل، وقوله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾[٧] فالإنسان يأخذ نسبة سعيه وليس بحجم سعيه، فالمعادلة ليست بين الأجر والعمل في الحجم والكم، وإنما المعادلة بالنسبة، فإذا كان الأجر بنسبة السعي ولو كانت النسبة مضروبة في مليون حينئذٍ يكون العطاء محدوداً يقول تعالى لزوجات النبي (ص) ﴿ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقاً كريماً﴾[٨] ويقول تعالى: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾[٩].

---

(١) سورة الحديد: ٧.
(٢) سورة آل عمران: ١٧٢.
(٣) سورة آل عمران: ١٧٩.
(٤) سورة الحديد: ١١.
(٥) سورة الفتح: ١٦.
(٦) سورة الزلزلة ٧ ـ ٨.
(٧) سورة النجم: ٣٩.
(٨) سورة الأحزاب: ٣١.
(٩) سورة القصص: ٥٤.

فهناك إذن طائفة من العطاء محدود ومحسوب وهناك نوع من العطاء لعباده المحسنين بلا حساب ﴿إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[1].

ثلاثة عناوين:

يقول تعالى: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا، ويزيدهم من فضله، والله يرزق ما يشاء بغير حساب﴾[2].

في هذه الآية ثلاثة عناوين لتعامل الله مع عباده الأول: ﴿ليجزيهم الله أحسن ما عملوا﴾.

في تعامل الناس بعضهم مع بعض طريقتان، فمرة تكون أمامنا مفردات كثيرة منه الفعل الحسن ونريد أن نعطي المحسن جزاء احسانه، وهنا في التعامل البشري طريقتان: أما أن نعطي بحساب رياضي، أي بطريقة حساب المعدل الوسط، فيعطى بمعدل فعله، وأما أن يعطى على أدنى مراتب فعله، مثلاً صديق أحسن لصديقه كثيراً أكرمه نصحه كاتبه أخلص إليه وتفضل عليه وو.. وهلم جرا إلا أنه أساء إليه مرة واحدة فالناس عادة يتعاملون بطريقة لئيمة وهي أن تسقط جميع الحسنات الكثيرة، وتُبَرز السيئة الواحدة وتجعل صبغته البارزة وهي عنوان عمله، هذا تعامل الناس، أما الله تعالى فلا يتعامل مع عباده المحسنين بهاتين الطريقتين وإنما يجزي المحسنين بأحسنَ ما عملوا، فعندما تعرض أعمال الإنسان أمام الله تعالى أعلاها وسطها وأدناها فالله يجزي المحسن على أعلى وأحسن أعماله ﴿وليجزيهم الله أحسن ما عملوا﴾.

٢ ـ العنوان الثاني: يزيدهم منه فضله: واضافة إلى أنه يجزي على

---

(١) سورة الزمر: ١٠.

(٢) سورة النور: ٣٧ ـ ٣٨.

أعلى مراتب العمل وأحسنه، ويعطي لهم اضافات أخرى اكراماً لهم، وتفضلاً من عنده. أما كيف يعطي؟ وماذا يزيد؟ ومتى يزيد؟ لا نعلم.

٣ ـ والعنوان الثالث: والله يرزق بغير حساب والله يعطي لعبده بغير حساب ولا نهاية ولا حدود هذا العبد المحسن، المحدود، والمنتهي يعطيه الله تعالى عطاءً غير محدود، ولا مقطوع لأنه أعطى لله بلا حساب.

النقطة الثالثة في كلمة الضحاك:

قوله للحسين (ع): ولكنك إن جعلتني في حل من الانصراف إذا لم أجد مقاتلاً قاتلت عنك، ما كان لك نافعاً وعنك دافعاً.

هذا الرجل دقيق في حساباته ـ وهذه الدقة جيدة إذا كانت مع النفس ـ أما مع الله تعالى فينبغي أن يتعامل مع الله تعالى كما يتعامل الله معه.

والملاحظ أنه يريد أن يقاتل مع الحسين ولكنه لا يريد أن يعطي للحسين عهداً يلزمه الحسين به ويمسكه به، ويريد أن يكون حراً ويتحلل عن كل قيد وشرط حتى مع الحسين وفي ساحة المعركة.

ويمكننا أن نلاحظ التناقض في كلامه فهو يقول للإمام إن عليّ ديناً ولي عيال ولكنك إن جعلتني في حل، فأول ما يقدمه، التزاماته تجاه عائلته وديونه، ثم مباشرة بطلب من الحسين أن يجعله في حل، فهو يشدد التزامه بعياله وديونه، ومن ناحية أخرى يريد أن يتحلل ويتحرر من كل قيد تجاه الحسين والإسلام، ومعلوم أن الحسين لا يريد أن يلزمه لنفسه بل يريده أن يدافع عن دين الله تعالى.

ولا شك أن الذي يتحلل من التزاماته تجاه الله ورسوله وأهل البيت لا بد وأن تستعبده الدينا، والذي يريد أن يتحرر من الدنيا والتزاماتها، لا بد وأن يلزم نفسه بما ألزمه الله تعالى به. ونحن نعلم أنه لا يمكن للإنسان أن يجمع بين حريتين والتزامين في آن واحد وفي مكان واحد.

فالضحاك يريد أن يسير مع الحسين ويدافع عنه، ولكنه يريد أن يبقي أبواب الدنيا من خلفه مفتوحة، فهو يريد أن يقاتل مع الحسين ولكن ما دام القتال نافعاً ومنقذاً له انسحب من المعركة أي إذا وصل إلى مرحلة من القتال، لا تسلم له دنياه فحينئذٍ ينسحب من القتال. بعبارة أخرى إذا وصل إلى مفترق بين ديونه وعياله وبين الحسين حينئذٍ يرجع إلى عياله وديونه، والدليل على هذا أن الضحاك في شروطه يبقي بابين مفتوحين: الأول الحل الذي طلبه من الحسين، والثاني: فرسه التي خبأها في الفسطاط ولم يقاتل عليها بل قاتل راجلاً خشية أن تعقر ولا يستطيع النجاة.

ونحن إذا استثنينا الذين يتحركون على غير شرط ويصدون الناس عن التحرك نجد أن الناس على طائفتين: طائفة تتحرك بجد وعزم وصدق وهؤلاء جادون في حركتهم كزهير والحر وعابس وبقية أصحاب الحسين، هؤلاء لم يبقوا باب الدنيا مفتوحاً من خلفهم وإنما أغلقوا جميع الأبواب وقطّعوا جميع الحبال خشية أن تستهويهم الدنيا وتجذبهم زخارفها لذا نرى زهير حين عزم على التحرك مع الحسين يقول لزوجته: «أنت طالق الحقي بأهلك» فهؤلاء نسفوا الجسور، وأحرقوا السفن من خلفهم حين وصلوا إلى المفترق بين الدين والدنيا، فآثروا دين الله على دنياهم الفانية واختاروا رضا الله تعالى، وتركوا الأموال والبنين والقناطير المقنطرة.

وطائفة أخرى من الناس يعطون من حياتهم لله بمقدار، ويتحركون بمقدار، فهم يحبون الله ورسوله وأهل بيته، ولكن ما لم يزاحم دنياهم ويسلب راحتهم وهؤلاء كلما مشوا شوطاً في طريق الله مدّوا جسوراً إلى الدنيا، فهم يتحركون في سبيل الله بمقدار ما يؤمن لهم الدنيا.

والعجيب العجاب أن يمتد حب الدنيا إلى ساحة كربلاء في حرب فاصلة وفي جبهة يقودها الحسين الذي ينبغي أن ينسى الإنسان فيها نفسه ومع ذلك بقي حب الدنيا في نفس الضحاك قوياً وهو بين يدي الحسين وامتد حب الدنيا معه إلى أعماق معركة الطف الذي وصل فيها إلى مرتبة سامية من المجد والشرف وهو يقاتل بين يدي الحسين، والحسين يدعو له

مراراً وفي هذه المرحلة الحساسة، الذي ليس بينه وبين لقاء الله إلا لحظات، وإذا بالدنيا تلاحقه، يقول لما رأيت أصحاب الحسين قد أصيبوا ولم يبق إلاّ الحسين وأهل بيته، وإلى هذا الحد الحاسم بقيت الدنيا تلاحقه وتستهويه وتجذبه، ونحن سمعنا ونسمع عن نفوذ الدنيا في نفوس أبنائها كثيراً ولكن إلى هذا الحد، يصعب على الإنسان أن يتصوره، إنه التصاق بتراب الأرض وخلود إليه بقوةٍ لا تُصدّق، مع ابن رسول الله وفي يوم عاشوراء!!!.

ولذلك من الخطأ أن يغتر الإنسان بنفسه ويقول بأنه تحرر من الدنيا، ففي النفس البشرية زوايا وخبايا ودهاليز عميقة يكمن فيها حب الدنيا وتبقى الدنيا تمسكه من خلال هذه المخابىء إلى حد بعيد لا يكاد يتصوره الإنسان.

نحن لا نشك بحب الضحاك للحسين ولكنه لم يستطع أن يتحرر من جاذبية الدنيا ويرتفع إلى سمو الشهادة.

النموذج الثاني: عبدالله بن الزبير

ومن المتخلفين عن الحسين (ع): عبدالله بن الزبير وهو أول مولود ولد في دار الهجرة من أبوين مهاجرين أبوه من أصحاب رسول الله (ص) المعروفين وهو الزبير بن العوام، وأمه أسماء بنت أبي بكر المعروفة بذات النطاقين، ونحن يهمنا من حياته بمقدار ما يتعلق بموقفه من الطف.

عندما نراجع حياة ابن الزبير السياسية نلتقي في حياته بنقطتين، الأولى ايجابية والثانية سلبية فهو لم يبايع يزيد من أول يوم وأعرض عنه، وبقي موقفه من حكم يزيد موقفاً معارضاً إلى أن هلك يزيد وتولى هو الخلافة بعد هلاكه وبقي مقاوماً حتى اللحظة الأخيرة من حياته، ولم يرضخ لسلطان بني أمية أبداً، ولم يستسلم لهم، حتى حين تفرق أصحابه وخذلوه خذلاناً شديداً. يروي لنا الطبري عن المنذر بن الجهم الأسدي، قال: .

«رأيت ابن الزبير يوم قتل وقد تفرق عنه أصحابه وخذله من معه خذلاناً شديداً، وجعلوا يخرجون إلى الحجاج حتى خرج إليه نحو عشرة آلاف.

وذكر أنَّ ممن فارقه وخرج إلى الحجاج ابناه حمزة وخبيب فأخذا منه لنفسيهما أماناً. .»[1].

قال محمد بن عمر: حدثني موسى بن يعقوب بن عبدالله، عن عمه

(١) الطبري م٦ ص ١٨٨ طبعة دار التراث.

قال: دخل ابن الزبير على أمه وعليه الدره والمغِفر، فوقف فسلم، ثم دنا فتناول يدها فقبلها، فقالت: هذا وداع فلا تَبْعَد، قال ابن الزبير جئت مودعاً، إني لأرى هذا آخر يوم من الدنيا يمر بي، واعلمي يا أمّه أني إن قُتِلت فإنما أنا لحم لا يَضُرّني ما صنع بي، قالت: صدَقت يا بُنيَّ أتممْ على بصيرتك، ولا تمكن ابن أبي عقيل منك، وادن مني أودّعك فدنا منها فقبّلها وعانقها، وقالت حيث مست الدرع: ما هذا صنيع من يريد ما تريد! قال: ما لبستُ هذا الدرع إلا لأشدّ منك، قالت العجوز: فإنه لا يشدُّ مني، فنزعها ثم أدرج كميَّه، وشد أسفل قميصه، وجبة خز تحت القميص فأدخل أسفلها في المنطقة، وأمه تقول: البس ثيابك مشمَّرةً ثم انصرف وهو يقول:

إنــي إذا أعــرفُ يومــــي أصبــر   إذا بعضهــم يَعــرِفُ ثــم ينكرُ.

فسمعت العجوز قوله، فقالت: تصبر انشاء الله أبوك أبو بكر والزبير، وأمك صفية بنتُ عبد المطلب»[1].

هذه هي النقطة الايجابية المشرقة في حياة ابن الزبير، وفي مقابلها نقطة سلبية في دائرة حادثة الطف، ابن الزبير لم يخرج مع الحسين إلى العراق، لماذا لم يخرج مع الحسين؟.

لو كان غير ابن الزبير من أمثال عبدالله بن عمر لقلنا هذا إنسان يؤثر العافية، ويخشى المواجهة، ويريد أن يركن إلى الدعة في حياته، لكن هذا الرجل لم يكن كذلك فهو رجل مقاومة، وبطل صراع، ومعارض قوي في ساحة المعارضة، وهو يعرف الحسين ومقام الحسين وعدالة قضية الحسين ورغم ذلك لم يساند الحسين فضلاً عن أن يبايعه. بل أكثر من ذلك لم يخفِ على الناس عدم ارتياح ابن الزبير من وجود الحسين في مكة، وكان يسره مغادرة الحسين لها ولذا كان مغتبطاً بمغادرة الحسين إلى العراق لأن الحسين (ع) قد استقطب الجماهير في مكة وابن الزبير ما كان بامكانه أن

(١) الطبري م٦ ص ١٨٩ ـ ١٩٠ طبعة دار التراث.

يبرز تحت الأضواء مع وجود الحسين (ع). فلما خرج الحسين أصبح هو محور المعارضة في الحجاز، وهذا الأمر لم يكن خافياً في سلوك ابن الزبير حتى مع الحسين (ع) كما يحدثنا الطبري عن لقائه بالحسين في مكة فيسأل الحسين (ع) أخبرني ما تريد أن تصنع؟ فقال الحسين: والله لقد حدّثت نفسي باتيان الكوفة، ولقد كتب إلي شيعتي بها واشراف أهلها واستخير الله؛ فقال له ابن الزبير: أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت بها؛ قال: ثم خشي أن يتّهمه فقال: أما أنك لو أقمت بالحجاز ثم أردت هذا الأمر ها هنا ما خولف عليك انشاء الله، ثم قام فخرج من عنده، فقال الحسين (ع): ها إن هذا ليس شيء يؤتاه من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق، وقد علم أنه ليس له من الأمر معي شيء، وأن الناس لم يعدلوه بي، فود أنيّ خرجت منها لتخلو له»[1].

وابن عباس بكل ذكائه وفطنته المعروفة كان يدرك أن ابن الزبير قد سره خروج الحسين (ع). ولذلك كان يقول للحسين (ع): (لقد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك إياه والحجاز والخروج منها، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك، والله الذي لا إله إلا هو لو أعلم أنك إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علي وعليك الناس أطعتني لفعلت ذلك. قال وخرج

ابن عباس من عنده فمر بعبدالله ابن الزبير فقال:

قرّت عيّنك يا بن الزبير! ثم قال:

يـا لـك مـن قبـرة بمقمـرِ خـلا لـك الجـو فبيضـي واصفـري
ونقّـري مـا شئـت أن تنقّـري

هذا حسين يخرج إلى العراق، وعليك بالحجاز[2] مهما كان رأي ابن عباس نحن لا ننتقص من مواقفه بعد أن قاوم يزيد، وعلى كل حال نسأل ابن الزبير لماذا لم يخرج مع الحسين؟.

---

(١) الطبري م ٥ ص ٣٨٣.
(٢) الطبري م ٥ ص ٣٨٤.

أسباب تخلف ابن الزبير:

من المسلمات البديهية في هذا الطرح أن ابن الزبير كان عنصراً معارضاً لحكومة يزيد، وكان يرى أن يزيد حاكم فاسق فاجر ظالم، والحسين (ع) قد خرج على حكومة يزيد، وتصدى لقلب الحكم ونفى شرعية الحكومة. ثم إن الحسين (ع) قد أعلن ثورته من المدينة ومكة، وخطب في مكة واستنصر المسلمين بحضور ابن الزبير قائلاً «إلا ومن كان باذلاً فينا مهجته، موطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإني راحل مصبحاً انشاء الله»[1]، إضافة إلى ذلك هناك حقيقتان قائمتان في الوضع السياسي أنذاك وهما.

هناك يزيد بن معاوية بيده السلطان، ويدعي لنفسه الشرعية، وابن الزبير لا ينكر وجود هذا الوضع ولا يعترف به بل يقاومه، والحقيقة الثانية: توجد ثورة على هذا الحاكم الطاغي يقودها الحسين، هذه الثورة دخلت دور الفعلية بخروج الحسين، فينبغي على ابن الزبير أن يحدد موقفه أمام محور السلطة الرسمية، وأمام محور الثورة الحسينية ولا يقبل منه إسلامياً أن لا ينتمي إلى هذا المحور ولا يرتبط بذلك المحور، لأنه ليس كابن عمر الذي كان يعتقد بشرعية خلافة يزيد، فلو كان ابن الزبير يعتقد كما يعتقد ابن عمر بشرعية الخلافة فلا نقاش لنا معه، ولكنه كان يعتقد أن محور الخلافة محور غير شرعي.

أما المحور الثاني (الثورة الحسينية):

بناء على نظرية الاختيار التي تقول: إذا تصدى أحد من المسلمين وكان كفؤاً عادلاً وبايعه من تتحقق به البيعة يجب على كل المسلمين طاعته وبيعته ويحرم على كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها مخالفته

(١) مقتل الحسين المقرم ص ١٦٦.

بالاجماع، ولا خلاف في هذا، وإنما الخلاف في عدد المبايعين له، هناك من يقول بأن عدد المبايعين اثنان. ومنهم من قال أكثر من ذلك، والحسين (ع) بايعه عدد كبير من المسلمين من ذوي الشأن في المجتمع الإسلامي والحسين خرج والخروج أكبر مَعْلَم للتصدي. إذن بماذا يعتذر ابن الزبير عن عدم خروجه مع الحسين ألا يعتقد بشرعية الخلافة؟ أم لم يسمع نداء الحسين، أم يعتقد بعدم جدارته، أم لا يعرف موقعه ومنزلته من رسول الله، أم يجهل فضله واخلاصه لرسالة الله تعالى؟؟. كل ذلك منتفٍ بلا شك ولا ريب.

نعم هو قد عرض البيعة على الحسين ولكن أخضعها لشروط هو يراها يقول الطبري:

قال أبو مخنف: قال أبو جناب يحيى بن حيّة، عن عدي بن حرملة الأسدي، عن عبدالله بن سليم والمذريّ بن المشعل الأسديين قالا:

خرجنا حاجيّن من الكوفة حتى قدمنا مكة، فدخلنا يوم التروية، فإذا نحن بالحسين وعبدالله بن الزبير قائمين عند ارتفاع الضحى بين الحجر والباب، قالا: فتقربنا منهما، فسمعنا ابن الزبير وهو يقول للحسين: إن شئت أن تقيم أقمت فوليت هذا الأمر، فآزرناك وساعدناك ونصحنا لك وبايعناك، فقال له الحسين (ع): إن أبي حدثني أن بها كبشاً يستحلّ حرمتها، فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش؛ فقال له ابن الزبير فأقم إن شئت وتوليني أنا الأمر فتطاع ولا تعصى، فقال: وما أريد هذا أيضاً؛ قالا: ثم أنهما أخفيا كلامهما دوننا، فما زالا يتناجيان حتى سمعنا دعاء الناس رائحين متوجهين إلى مِنىً عند الظهر قالا: فطاف الحسين (ع) بالبيت وبين الصفا والمروة وقص من شعره، وحل من عمرته، ثم توجه نحو الكوفة، وتوجهنا نحو الناس إلى منى»[1].

إذن ابن الزبير عرض البيعة على الحسين ولكنها بيعة مشروطة بالبقاء

---

(١) تاريخ الطبري م ٥ ص ٣٨٤.

في الحجاز، ولكن لماذا جاء بهذا الشرط الذي لم ينزل الله به من سلطان، فهو أما أن يرى الحسين إماماً للمسلمين تصدى وخرج وثار، وهو كفؤ عادل فيجب عليه الطاعة سواء كان في الحجاز أو الكوفة.

طريقة عمل الأنا:

الأنا محور خطير وحساس في حياة الإنسان، يجتذب كل اهتمامه، ومشاعره وعواطفه وحركته ويوجه حياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وبعبارة أخرى يستقطب اهتماماته المادية والمعنوية فإذا استحوذت الأنا والأنانية على الإنسان، حصرته في دائرتها، وتصبح هي المنظّمة والمسيطرة على حياته.

إن الإسلام يعمل على هدم محور الأنا من حياة الإنسان، وينصّب بدلها محوراً جديداً يكون هو المسيطر وهو الموجه والمنظم، هذا المحور هو محور التوحيد ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت...﴾[١].

فإذا تركّز هذا المحور في نفس الإنسان عن إيمان ووعي، تولدت في ذاته بؤرتان بؤرة الحب، وبؤرة البغض ونحن نسمي هذا المحور محور الولاء والبراءة والإنسان دائماً يقترب ويبتعد من الأشخاص والأشياء والمبادىء على ضوء هذا المحور فالولاء مقرّب ومحرك وموجه ومنظم لحياة الإنسان والبراءة بعكسه تبعد وتنفر وتضع الحواجز والموانع في طريق الإنسان....

وخلاصة القول: إن الأنا إذا دخلت في حساب الإنسان ولم يوجهه نظام فكري سليم متجرد عن الأنا وموجه لها لا بد وأن يقع فيما وقع فيه ابن الزبير.

---

(١) سورة الأنعام: ١٦٢.

فالمسألة إذن مسألة الأنا، وابن الزبير يعمل ضد الحكم الأموي لتحقيق الأنا الحاكمة في حياته، أما الحسين فيعادي النظام الأموي لتحكيم شرعة الله وحفظها من التحريف وشتان ما بين الهدفين لذلك افترق ابن الزبير عن الحسين الذي استقطب التوحيد حياته، وأصبح القوة الوحيدة الموجهة، وابن الزبير استحوذت عليه الأنا وحبس نفسه في اطارها ولم يستطع أن يفلت من جاذبيتها.

ظاهرة الانقلاب في يوم عاشوراء

يوم عاشوراء مرآة لحياتنا، وابطال عاشوراء مرايا الشرائح في المجتمع، ففي هذا اليوم نقرأ حياتنا ونقرأ شرائح المجتمع لأننا نقرأ التاريخ البشري كله، صحيح أن حادثة الطف جزء من حوادث التاريخ ولكنها حادثة تستجمع جميع مفردات التاريخ ونماذجه وشرائحه.

«وحياة الحسين (ع) عِظَة من التاريخ، لكنّها تجمع التاريخ كله؛ فليس معناها في حدود ما وقعت من الزمان والمكان، بل حدودها حدود الزمان والمكان المطلقين وهي بعد ذلك حديث الشخصية الكاملة من جميع أقطارها، ففيها القدوة الصالحة، وفيها المثل الأسمى للإنسان الكامل، والصراط السوي للمسلم القرآني، وربما امتازت سيرة هذه الشخصية بشيء آخر عن الشخصيات التاريخة، بأنها تقع في مضاعفات كبيرة تجمع شتى الصور، بحيث تعطي في كل صورة شخصية فذة وإنسانية رفيعة»..[1].

(فرجلٌ كيفما سموت به من أي جهاته انتهى بك إلى عظيم، فهو ملتقى عظمات ومجمع أفذاذ، فإن من ينبثق من عظمة النبوة (محمد)، وعظمة الرجولة (علي)، وعظمة الفضيلة (فاطمة) يكون أمثولة عظمة الإنسانية، وآية الآيات البينات. فلم تكن ذكرى رجل بل ذكرى الإنسانية الخالدة، ولم تكن أخباره أخبار بطل بل خبر البطولة

---

(١) الإمام الحسين ص ٩.

الفذة»[1] من الصور الرائعة التي حدثت في يوم عاشوراء صور الانقلابات التي وقعت في كربلاء في مواقف ثلة من الناس انتقلت من صف الضلال إلى صف الهدى كالذي وقع في موقف زهير بن القين، والحر بن يزيد الرياحي رضي الله عنهما وحيث نتحدث عن هاتين الشخصيتين إنما نتحدث عن مجتمع، ونرى التحولات العميقة في حياتنا من خلالهم، فساحة عاشوراء مرآة عاكسة لجميع النماذج الاجتماعية، ويمكننا أن نقسم هذه النماذج إلى ثلاثة أقسام.

١ ـ نموذج ثبت على الحق.

٢ ـ نموذج انسحب من دائرة الصراع.

٣ ـ نموذج وقف ضد الحسين.

في كربلاء برزت ظاهرتان:

١ ـ ظاهرة انقلاب[2] ٢ ـ ظاهرة انهيار فشمر من نماذج الانهيارات، فقد كان هذا الرجل مع أمير المؤمنين في حرب صفين ووقف إلى جانبه وقاتل معه، وكذلك عمر بن سعد وغيره، إذن في كربلاء بـرز نوعان من التحولات من الحق إلى الباطل نسميه (انهيار)، ومن الباطل إلى الحق نسميه (انقلاب)، وكلا الظاهرتين تحتاج إلى دراسة وتحليل لماذا يحدث هذا التحول في حياة الناس بين حين وآخر؟.

---

(١) نفس المصدر ص ٩٠.

(٢) الانقلاب: هو غير التقلب والاضطراب، والمقصود به حالة كونية مغيرة أو حالة انسانية عميقة. أو تغير سياسي جذري في النظم والأفكار والعقائد.. فعندما يتحول الإنسان من الفساد إلى الصلاح ومن الفجور إلى التقوى بصورة مفاجئة تقول انقلب وتغير. قالوا إن رئيس عصابة إجرامية في أيام بني العباس تسلق جدار بيت في منتصف الليل فسمع صاحب البيت يقرأ «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله» فقلبت هذه الآية تفكيره ورجع وتحول من مجرم إلى عابد زاهد... وفي ساحة الطف لدينا نموذجان بارزان انقلبا. هما زهير بن القين والحر بن يزيد الرياحي.

وقد ضرب القرآن لنا مثلين من أمثلة الانهيار وهما قارون وبلعم بن باعورا.

والسبب في حدوث حالة الانهيار هو تردي حالة التدين، نتيجة ضعف حالة الولاء لله، والارتباط به، فالعلاقة بين الله وبين الإنسان إذا ضعفت يبدأ الانحدار بشكل تدريجي، ويتحول التدين إلى حالة مصلحية سوقية وحينئذٍ تسهل هيمنة الشيطان على الإنسان. يقول الحسين (ع) عن هذه الطائفة:

«الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون».

فالناس أصحاب دين، ولكنه دين ذات علاقة ضعيفة بالله تعالى، وهذا النوع من التدين لا يثبت أمام المغريات والتجاذبات الدنيوية وبالتدريج يتحول إلى مصلحة من المصالح الذاتية فما دامت تلك المصلحة متحققة فهو متدين فإذا زاحم تلك المصلحة شيء آخر فضلها وقذفها عليه، ولا شك أن التدين يزاحم المصالح الذاتية، فإذا كانت المصلحة الذاتية هي الحاكمة على الإنسان فلا بد أن يقدمها على تدينه (يحوطونه ما درّت معايشهم....).

ولا شك أن كل إنسان يحب أن يجمع الله له بين الدين والدنيا، وهذه الحالة عند عبيد الدنيا، وعند (الديانون)، ولكن الفرق عند هؤلاء وأولئك في ساحة التزاحم بين مصلحة الدين ومصلحة الدنيا، وهذا غالباً ما يقع عندما يصل الإنسان إلى مفترق لا بد أن يختار أحد الطريقين ويستحيل عليه أن يجمع بين المسلكين. هنا يختلف الديانون عن عبيد الدنيا، بين من يختار الخيار الصعب الذي يخالف فيه أهوائه وميوله، ويقدم رضا الله عليها، وبين من يستجيب لأهوائه وميوله فلا يمكن للإنسان أن يوفق دائماً للسير على الطريق العريض فقد يصل إلى المفترق وحينئذٍ لا بد له أن يختار أحد المسلكين وهنا تأتي المحنة الصعبة فعلى الجادة

العريضة التي يجتمع فيها الدين والدنيا يزدحم الناس وأكثرهم على هذا المسلك ولكن عند الوصول إلى المفترق، طريق الدين يقل سالكوه. فعندما خرج الحسين من مكة خرج معه خلق كثير لأنهم كانوا يتصورون أنهم يجمعون بين ثبات الدين، ونعيم الدنيا. وأنّهم سينعمون بصحبة الحسين ويرتشفون من بركات بحره الزاخر بكل خير. ويتنعمون بنعيم العراق وخيراته وسلطانه، ومن لا يريد ذلك، ولكن كلما تقدم الحسين في مسيره اتضح لهم أن الطريق يضيق، وتشتد المحنة إلى أن وصلوا إلى المفترق بين أحد الخيارين أمام الحسين الذي يمثل الإسلام الحق، أو النعيم الدنيوي، انصرف الناس وتسلّلوا في جنح الظلام ولم يبق مع الحسين إلا اثنان وسبعون نفر وبدأت الانهيارات تبرز الواحدة تتلو الأخرى بين من خرج مع الحسين (ع) وهنا تبيّن الهمج الرعاع عبيد الدنيا، كما تبين الديانون.

وتغبير الحسين عن هذه الحقيقة دقيق جداً، الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم فاللعق: من اللعقة وهي الشيء القليل جداً، فلا هي غذاء مشبع، ولا يمكن انكار مذاقها إلا أنه مذاق باهت ضعيف لا يؤثر شيئاً ولا يبقى طويلاً. والذين دينهم لعق على ألسنتهم لا يشعرون بأن الدين له دور في حياتهم يملأ نفوسهم ويوجه سلوكهم، هذا من جانب ومن جانب آخر لا يشعرون أنهم تجردوا عن الدين حتى تؤنبهم وتوبخهم ضمائرهم ليعود إليهم، بل هو لعق يبرق ويلوح ثم سرعان ما يزول، بل ينمحي عند البلاء والتمحيص.

الانقلابات العكسية:

وفي مقابل الأنهيارات توجد الانقلابات العكسية، وقد أشار القرآن الكريم أيضاً إلى نموذجين من نماذج الانقلابات العكسية النموذج الأول سحرة فرعون، والثاني: فتية الكهف.

وفي كربلاء يوجد نماذج من الانقلابات ولكن أبرزها انقلاب الحر

بن يزيد الرياحي وزهير بن القين.

كيف نفهم الانقلاب؟

الإنسان في حياته يتحرك من خلال عاملين:

الأول: الولاء.

الثاني: المصلحة.

هذان العاملان يحركان الإنسان ويوجهانه وهناك تبادل بين هذين العاملين، يعني أحياناً أن الولاء يتحول إلى مصلحة عند ذلك يحدث الانهيار كما حدث في حياة قارون وبلعم بن باعورا، فقد كان قارون من المقربين إلى موسى وآتاه الله علماً، وعندما اتخذ العلم وسيلة لتحقيق أهوائه والدين مصلحة يحقق له أمانيه، انحدر بالتدريج من نور الولاء إلى ظلمة المصلحة. ولا شك أن المصلحة تجر الإنسان بالتدريج إلى الولاء للطاغوت، فيتدرج من الولاء لله إلى الولاء للطاغوت الذي يأمل تحقيق مصالحه الدنيوية من خلاله، فالانهيار يحدث تدريجاً وليس مفاجئاً فالانتقال من الولاء لله إلى الولاء للطاغوت لا يحدث بطفرة واحدة وإنما هناك محطة وسط يمر بها وهي المصلحة الذاتية، ولاسيما إذا دخلت عوامل التبرير والتخريجات باسم الشرع المقدس.

والعجيب أن الإنسان يستطيع أن يلعب هذا الدور بشكل فعال، فيدّعي أنه يدعو لله، وهو في حقيقة الأمر يدعو لنفسه، ويزعم أنه يعمل لله ولكن يجعل هذا العمل يصب في قناة مصالحه وأهوائه، ليجمع بين الدين والدنيا، وحينئذٍ يجر الولاء إلى تحقيق مصالحه الذاتية، وهذه المصلحة تجره بالتدريج إلى الولاء للطاغوت، لأنه يرى أن هذه المصلحة لا تتحقق إلا بالولاء للطاغوت، هذه هي الحركة العكسية من الله إلى الطاغوت.

خصائص الولاء:

الولاء سواء كان لله تعالى أو كان للطاغوت له خصيصتان مؤثرتان تأثيراً قوياً في حياة الإنسان.

١ ـ هو صبغة في حياة الإنسان، وطابع يطبعها بما يريد، مثلاً الإنسان الموحد الذي وعى حقيقة التوحيد ترى حياته منصبغة ومطبوعة بالتوكل على الله والثقة به، والشعور لهيمنته والاحساس بنعيمه والخوف منه والخجل منه. وهلم جرا فتراه ذاكراً لله تعالى قياماً وقعوداً وفي كل مكان في البيت والمدرسة والسوق، وفي حالة الرضا والغضب، والفقر والغنى. كذلك الولاء للطاغوت يصبغ حياة الإنسان ويصورها كما يريد.

٢ ـ الولاء عامل موجه للإنسان كما يقول تعالى ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾[(١)].

فالولاء إذن يوجه حياة الإنسان حيث يشاء وهو ينفذ إلىٰ عمق الشخصية سواء كان لله تعالى أو للطاغوت، ولكل من الولائين آثار تظهر على سلوك الإنسان. فالشخص الذي ينفذ الولاء إلى الطاغوت إلى أعماقه يفسده في جميع جوانبه الفكرية والعقائدية والنفسية ويقتحم ضميره الذي يعتبر آخر قلعة يقتحمها الشيطان في الإنسان، فإذا أسقط الضمير في ولاء الطاغوت تحول الإنسان إلى مستعمرة للهوى والطاغوت، وأما إذا بقي الضمير حياً فمهما انحرف الإنسان يبقى هنالك أمل في نجاته.

والجيل كذلك إذا بقي ضميره حياً فهناك أمل ورجاء في نجاته، وأما إذا فسد الضمير فلا يبقى أمل فيه كما في قوم نوح عندما وصل الفساد إلى الضمير أوحى الله إلى نوح (ع) ﴿لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾[(٢)].

فسلامة الضمير هي سبب الانقلاب في حياة الإنسان مهما انحرف

---

(١) سورة الأنعام: ١٦٢.

(٢) سورة هود: ٣٦.

عن جادة الصواب فالذي ينقذ الإنسان من السقوط هو الضمير لأنه يُبقي الإنسان حراً، وهذه الحرية تنجيه في اللحظة الأخيرة لأن الإنسان الذي يسلم له ضميره يملك حرية القرار، والذي يسقط ضميره يفقد حرية القرار، والحرية ليس كما يفهمها عبيد الدنيا بأنها الاستجابة للأهواء والشهوات وإنما هي التحرر من قيودهما فسلامة الضمير من السقوط هي الحرية، وخير مصداق لهذه الحقيقة الحر بن يزيد الرياحي الذي أدركه الضمير وهو على شفى جرف هار فأنقذه من السقوط، فبقي حراً يملك قراره حتى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة حين قال له الحسين (ع) «أنت حر كما سمتك أمك حراً» وهذا هو الذي حوله من جبهة الولاء للطاغوت إلى جبهة الولاء لله تعالى.

النموذج الأول:

انقلاب الحر ليس أمراً هيناً، وإنما كان أمراً صعباً حيث يستل نفسه من دنيا عريضة واسعة مال وجاه وسلطان وشهرة ويختار على ذلك الموت في سبيل نصرة الحق.

فالحر من الشخصيات البارزة في الكوفة بل كان من الرؤساء المرموقين فيها، وله مكانة اجتماعية كبيرة في قومة من الجاهلية والإسلام، وهو من أمراء الجيش الأموي انتدبه ابن زياد لحرب الحسين وجعل تحت امرته ألف فارس.

فهو إذن يملك موقعاً اجتماعياً، وثروة مالية كبيرة وله دور عسكري مغري في جيش ابن زياد ورغم تلك المغريات استل نفسه بقوة ضميره واستطاع أن يتجاوز هذا الموقع ويتحرر منه في اللحظة الأخيرة. يقول مرافقه المهاجر بن أوس وقد رآه يدنو من الحسين قليلاً قليلاً: ما تريد يا بن يزيد، أتريد أن تحمل؟ فسكت وأخذه مثل العُرَوَاء[1]، فقال له يا ابن

---

(١) العرواء كغلواء: الرعدة تكون من الحمّى.

يزيد، والله إن أمرك لمريب، والله ما رأيت منك في موقف قط مثل شيء أراه الآن، ولو قيل لي: من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك، فما هذا الذي أرى منك! قال: إني والله أخيّر نفسي بين الجنة والنار، والله لا أختار على الجنة شيئاً ولو قُطِّعتُ وحُرّقت؛ ثم ضرب فرسه فلحق بالحسين عليه السلام...[1].

نعم يخيّر نفسه بين الجنة والنار، أنه قرار صعب كلّفه كل دنياه ماله ولده نفسه موقفه، بل كل غال ونفيس، وهذا القرار انتزعه من الدنيا ونفس الإنسان مرتبطة بها بألف حبل وحبل، ولا بد أن يقطع جميع هذه الحبال وينتزع نفسه من كل متعلقات نفسه بالدنيا. والحر استطاع أن ينتزع نفسه من جاذبية الدنيا برمتها ويدخل دائرة الجاذبية الحسينية، ولا شك أن ارتعاده ورعدته ليس من ابن زياد وابن سعد وإنما خوفه أن تنصاع نفسه إلى بريق دنيا ابن زياد وبريق المقام، والشهرة والمال والولد ولذلك ضرب فرسه بسرعة خاطفة ووقف بين يدي الحسين معتذراً نادماً منكسراً ليقول له: (جعلني الله فداك يا آبن رسول الله أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع، وسايرتك في الطريق وجعجعت بك في هذا المكان والله الذي لا إله إلا هو: ما ظننت أن القوم يردّون عليك ما عرضت عليهم أبداً، ولا يبلغون بك هذه المنزلة فقلت في نفسي لا أبالي أن أصانع القوم في بعض أمرهم، ولا يظنون أني خرجت من طاعتهم، وأما هم فسيقبلون من حسين هذه الخصال التي يعرض عليهم ووالله إني لو ظننتهم لا يقبلونها منك ما ركبتها منك، وأني قد جئتك تائباً مما كان مني إلى ربي ومواسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك، أفترى لي من توبة قال: نعم يتوب الله عليك ويغفر لك فانزل[2]...

وما أن يقبل الحسين (ع) توبته حتى يطلب منه فوراً أن يكون أول الداعين إلى نصرته والمبارزين بين يديه.

---

(١) الطبري م ص ٤٢٧. ابصار العين للسماوي ص ١١٩.

(٢) ابصار العين في أنصار الحسين لمحمد السماوي ص ١٢٠، الطبري ح ٥ ص ٤٢٧ - ٤٢٨.

الحر إذن استطاع أن يتحكم بوضعه النفسي وهو لم يكن إنساناً فقيراً ولا زاهداً بل كان غارقاً في دنيا ابن زياد. ويتمتع بموقع عزيز، ومواجهته للحسين (ع) تدل على أنه قائد متمرس في المعارضة وهو يعرف الحسين (ع) حق المعرفة، وكان يتمنى أن لا يبتليه الله بدم الحسين، ومع عطف الحسين واكرامه له في قصة السقاء، ورغم ذلك نفّذ أوامر بن زياد تنفيذاً حرفياً. والحسين (ع) لما واجه الأمر الواقع، وأن الحر مُصيرٌ على مواكبته لتسليمه لابن زياد تياسر في السير وابتعد عن الكوفة والحركان يضايقه كلما ارتفع صوت الحسين وهدده بالمناجزة قال له الحر لا ترد إلى الكوفة ولا ترجع إلى المدينة يعني خذ سبيلاً ثالثاً وكان يتصور أن هذا ينقذه من دم الحسين إلى أن جاءه رسول ابن زياد يأمره أن لا يُنزل الحسين إلا بالعراء في غير حصن ولا ماء، وأن يلازمه ولا يفارقه.

والعجيب أن الحر نفذ أوامر ابن زياد فأنزل الحسين بعيداً عن الماء وعن المكان الذي يحمي ظهره ولكن راعى في حواره مع الحسين منتهى الأدب مع قوة المشادة الكلامية وحراجة الموقف، وهذا يدل على حكمة الحر وحنكته أعطى كل شيء لابن زياد واحتفظ بضميره وقيمه، فكان ضميره هو سفينة النجاة له من السقوط في مستنقع الرذيلة والكفر.

وحتى في مواجهته مع الحسين وفي مشادته معه كان محافظاً على سلامة ضميره والتزامه بالقيم الأخلاقية والآداب الإسلامية يقول المؤرخون لما أراد الحسين أن ينصرف بأصحابه حال القوم بينهم وبين الانصراف، فقال الحسين للحر: «ثكلتك أمك ما تريد؟ قال أما والله لو غيرك من العرب يقولها وهو على مثل هذه الحالة التي أنت عليها ما تركت ذكر أمه بالثكل أن أقوله كائناً ما كان، ولكن والله مالي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما أقدر عليه».

وأخيرا نقول: أن الحركان يحب دنياه ويجب أن تسلم له ولكن ليس بكل ثمن وهذا هو الفرق بين الحر وبين ابن سعد. فابن سعد كان يريد الدنيا ولكن بكل ثمن.

كلمة أخيرة:

إن الله اختار الحر لأسمى وأشرف موقع في حياة الناس وأكرمه بالشهادة، والشهادة مع الحسين ليس فوقها كرامة، وهي قفزة من السقوط إلى قمة الرفعة والسمو من حضيض دنيا ابن زياد إلى معراج دنيا الحسين فهي قفزة فوق العادة، وقفزة بهذا المستوى لا يمكن تصورها إلا بسلامة الضمير والفطرة فليحافظ كل منا على سلامة القلب ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم...﴾[1].

النموذج الثاني:

أمّا الانقلاب الذي حدث في داخل زهير بن القين يختلف عن الانقلاب الذي حدث في شخصية الحر فالحر كما قلنا كان قائداً بارزاً من قواد الجيش الأموي، وواجه الحسين بقوة وعنف، وأقدم على عمل حساس وخطير، حيث سد الطريق في وجه الحسين (ع) من أن ينزل على ماء أو في مكان يحمي به ظهره ورغم ذلك كان في داخله ضمير واعي حي يقظ، ولهذا بقي تحت ضغط هذا الضمير النابض بالحيوية إلى أن تفجر يوم العاشر من المحرم في كربلاء، أما انقلاب زهير فلم يكن كذلك، فلم يتمتع بموقع قيادي في جيش يزيد، ولا تصدى للحسين (ع) بل كان يحذر أن يلتقي بالحسين (ع)، وما وصل من الحراجة الشديدة في الموقف كما وصل الحر حين وقف يخيّر نفسه بين الجنة والنار وبناء على ذلك لا يمكن أن نحلل انقلاب زهير كما نحلل انقلاب الحر.

نحن نعتقد أن هناك شيء وراء الضمير ـ ولا نشك في سلامة ونقاوة ضمير زهير ـ لقد كان زهير يحذر أن يلتقي الحسين (ع) وكان في عودته من الحج يحاول أن لا يرى الحسين، وشاء الله أن يلتقيا رغم الحذر

---

(١) سورة الشعراء: ٨٨.

الشديد، فلما جاءه داعي الحسين (ع) وقال له: «إن أبا عبدالله الحسين بن علي بعثني إليك لتأتيه»[1] وما أن سمع الداعي حتى أصابه وجلسائه الوجوم وطرح كل منهم ما في يده حتى كأنَّ على رؤسهم الطير، وخيم عليهم الوجوم والسكوت ولم يدروا بماذا يجيبون، والذي أنقذ الموقف تدخل زوجة زهير (دلهم بنت عمر) (رض) مستنكرة على زهير سكوته ووجومهُ قائلة:

«أيبعث إليك ابن رسول الله (ص) ثم لا تأتيه سبحان الله لو أتيته فسمعت من كلامه ثم انصرفت»[2].

وما أن سمع استنكار زوجته حتى نهضت فيه حمية الإسلام، وذهب إلى الحسين (ع) وفي دقائق خاطفة، رجع مستبشراً قد أسفر وجهه وانقلب على نفسه، فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه فقوض وحمل إلى الحسين (ع) ثم قال لزوجته أنت طالق إلحقي بأهلك، فإني لا أحب أن يصيبك بسببي إلا خيراً، ثم قال لأصحابه، من أحب منكم أن يتبعني وإلا فإنه آخر العهد[3] هذه خلاصة الرواية، ونحن نذكر عناصر الرواية ثم نحللها. تحتوي الرواية على أربعة عناصر.

الأول: الشخصية العثمانية: فقد كان زهير طيلة حياته الإسلامية عثماني الهوى أموي الميول ونحن لا نتوقف عند هذا العنصر لأن الناس على دين ملوكهم والعهد الذي عاشه زهير عهداً عثمانياً.

٢ ـ محاولة زهير تجنب الحسين (ع): ونحن نقول للإنصاف أن التاريخ لم يسجل موقفاً سلبياً من زهير بن القين تجاه الحسين، وأكثر ما يذكر عنه أنه كان لا يريد أن يدخل في شيء من أمر الحسين، لا في خير ولا في شر فهو رجل مترف، ولا يريد أن يبتلي بشيء ويحاول أن يحافظ

---

(١) ابصار العين ص ١٢٠.
(٢) ابصار العين ص ٩٥ محمد السماوي.
(٣) ابصار العين محمد السماوي ص ٩٥.

على موقعه وثروته، فإذا استجاب للحسين يمكن أن يفقد كل ذلك، وهو يعلم إن موقفه ضد الحسين يفقده آخرته، فجمع تفكيره، ونظم حساباته، وقرر أن لا يلتقي الحسين لا في خير ولا في شر، ولذلك لما جاءه داعي الحسين (ع) أصابه الوجوم، وهذا الوجوم يصيب الإنسان عندما يفقد القرار ويقع في حيرة من أمره، ولا يدري ماذا يفعل لو لم تنقذ الموقف المرأة الصالحة دلهم، وتجعله يتوجه إلى الحسين.

العنصر الثالث: الانجذاب السريع الذي وقع لزهير تجاه الحسين خلال دقائق قليلة قضاها مع الحسين لا ندري ماذا قال له وبماذا أجا وماذا أعطاه الحسين؟ هذه قضية مجهولة وهو لم يكشف السر عما جر بينه وبين الحسين.

تحليل الموقف:

يستبطن زهير شخصيتين ذات بعدين:

الأول: بُعدٌ منغلق على الحسين (ع) يؤثر عافية الدنيا على سعادة الآخرة، وهذا البُعد هو الذي جعل زهير يصيبه الوجوم حين وقف عنده داعي الحسين (ع) ودعاهُ إليه.

الثاني: هي الفطرة النقيّة الطاهرة لزهير.

والبعد الثاني هو الذي استجاب، وقد كان قوياً جداً بل أقوى منه البعد الأول، والذي يتأمل في موقف زهير حين يحاول أن لا يلتقي الحسين، ثم وجومه عندما دعاه رسول الحسين يفهم جيداً أن زهير يعاني من صراع عنيف بين هذين البعدين داخل نفسه فطرته السليمة وحب الدنيا وايثار العافية على مشاكل طريق ذات الشوكة، وعندما تقطع عليه زوجته حالة الوجوم والتردد يبرز البعد الثاني من شخصيته ويقع تحت الجاذبية الحسينية، ونحن لا ندري كيف أثرت الجاذبية الحسينية في شخصيته وقلبته من عثماني إلى حسيني ومن حب الدنيا وايثار العافية، إلى حب

الشهادة وايثار الآخرة، من طالب للدنيا مؤثر للعافية إلى طالب للآخرة مستبشر بالجنة ولا نجد تفسيراً لذلك إلا أن يكون زهير قد وقع تحت الجاذبية الحسينية الساحرة.

والجاذبية بين القلوب كالجاذبية في الفيزياء، ولكن الفرق أن علماء الفيزياء أخضعوا الجاذبية إلى دراسات رياضية متينة وحسابات دقيقة، وعرفوا كيف تحدث ومدى تأثيرها.

وأما الجاذبية التي تحصل بين قلب وقلب في لقاء أو نظرة، أو في كلمات أو غير ذلك فلم تُدرس لحد الآن، ونحن نفهم من اللقاء الذي تم بين الحسين وبين زهير شيئين:

الأول: إن الانقلاب كان سريعاً، أسرع مما تتصور فزهير طيلة عمره كان عثماني الهوى، موقفه وعلاقته وعائلته وأفكاره وتوجهاته، وخلال دقائق ينقلب انقلاباً جذرياً، وينسف كل تاريخه ويتحول إلى الاتجاه المعاكس، فهذا ليس أمراً عادياً سهل التصور، هذه السرعة المدهشة تلفت أنظارنا إلى أن سرعة تجاذب القلوب أقوى وأسرع من سرعة الضوء الذي يعتبر أعلى سرعة في الكون حيث يقطع (٣٠٠٠٠٠) كلم في الثانية هذا من جانب ومن جانب آخر برزت قوة فعل الجاذبية. ففي دقائق قليلة انزوى وزال الوجه الأول من شخصية زهير، ذلك الوجه المنغلق، المعاند المتهرب من لقاء الحسين، وبرز البعد الثاني من شخصيته، وأصبح هو الحاكم عليه، ونحن لا نستطيع أن نفهم هذه السرعة في الانقلاب حتى نفهم أسرار الجاذبية بين القلوب، وهذا الانقلاب السريع القوي لا نستطيع أن نفسره إلا بتأثير الجاذبية الحسينية، هذه الجاذبية نعبر عنها بالحب، والحب له تأثير كبير في بناء شخصية الإنسان وجاذبية الحب التي جذبت زهير للحسين لها تأثير متعدد الأطراف.

١ ـ تُجَردُ الإنسان من الأنا، فالحب يقتلع الأنانية الطاغية، أو على الأقل يضعفها.

٢ ـ إن الجاذبية تهذب النفوس، فزهير قبل اللقاء الحسيني محور حياته (الأنا) وبعد لقائه بالحسين تحول من الأنا إلى الله.

٣ ـ هذه الجاذبية تفجر الطاقات العظيمة عند الإنسان فزهير الذي كان إنساناً عادياً وشخصية عادية قبل لقائه بالحسين أصبح إنساناً وشخصية أخرى، والذي يدرس شخصيته قبل اللقاء وبعد اللقاء يلتقي بنموذجين مختلفين تماماً.

النموذج الأول: شخصيته قلقه، مضطربة منهزمة من نصرة الحق.

النموذج الثاني: معطاء كريم شجاع. فدائي مضحٍ بكل شيء ونعود إلى التاريخ لنرى شخصية زهير عبر كلمات المؤرخين «كان زهير رجلاً شريفاً في قومه نازلاً فيهم بالكوفة شجاعاً له في المغازي مواقف مشهورة، ومواطن مشهودة، وكان أولاً عثمانياً فحج سنة ستين في أهله، ثم عاد فوافق الحسين (ع) في الطريق فهداه الله، وانتقل علوياً»[1].

وقال أبو مخنف: فحدثني السدي عن رجل من بني فزارة قال: لما كان زمن الحجاج بن يوسف كنا في دار الحارث بن أبي ربيعة، فقلت للفزاري حدثني عنكم حين أقبلتم مع الحسين بن علي؛ قال: كنا مع زهير بن القين البجلي حين أقبلنا من مكة نساير الحسين (ع)، فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسايره في منزل، فإذا سار الحسين تخلف زهير بن القين، وإذا نزل الحسين تقدم زهير، حتى نزلنا يومئذٍ في منزل لم نجد بداً من أن ننازله فيه، فنزل الحسين (ع) في جانب، ونزلنا في جانب فبينما نحن جلوس نتغذى من طعام لنا، إذ أقبل رسول الحسين حتى سلم، ثم دخل فقال: يا زهير بن القين إن أبا عبدالله الحسين بن علي (ع) بعثني إليك لتأتيه؛ قال فطرح كل إنسان ما في يده حتى كأنَّ على رؤوسنا الطير»[2].

---

(١) ابصار العين في أصحاب الحسين لمحمد السماوي ص ٩٥.

(٢) تاريخ الطبري م ٥ ص ٣٩٦.

هذه هي رواية الحسين مع زهير، المنزل الواحد جمع بين الطرفين بغير ميعاد، ويدخل الطرف الثالث الذي لم يكن يتوقعه زهير بن القين هذا الطرف هو اليد الغيبية التي جمعتها على غير موعد سابق ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد﴾[1].

وهنا أيضاً جاذب ومجذوب، الطرف الجاذب هو المبادر للدعوة والداعي للنصرة، والطرف المجذوب هو الهارب من لقاء الحسين، ولما أدّى الحسين (ع) دوره بدعوة زهير حدث الوجوم والتردد والحيرة، لأن زهير لم يكن يحتمل مجيء هذا الرسول، هنا تتدخل اليد الغيبية فلا تترك الوجوم يستمر طويلاً. فتدفع (دلهم) زوجة زهير لتفجر الموقف وتقول بتعجب:

«أيبعث إليك ابن رسول الله (ص) ثم لا تأتيه، سبحان الله لو أتيته فسمعت من كلامه....».

هذه الكلمة أنقذت الموقف، ورحم الله هذه المرأة الصالحة على هذه المبادرة السريعة، التي اخترقت حالة الوجوم بالرأي القاطع، واليقين الثاقب، ولو لم تتدخل (دلهم) لبقي زهير على حاله، ذلك الإنسان العادي، ولم يدخل دائرة الضوء ولم يخلد في ذاكرة التاريخ، ولم يعش في دار الخلد في جوار رسول الله (ص) ورحم الله هذه المرأة الصالحة على هذه الكلمة المباركة التي صنعت تاريخاً، وجعلت من زهير قدوة وأسوة وفي مواقفه دروساً وعِبراً، (فدلهم) خلّدت زهير في التاريخ بكلمة قالتها، فما أعظمها من كلمة، وهذا دليل على عظمة الاخلاص لله تعالى، كلمة واحدة يقولها الإنسان في سبيل الله باخلاص وتجرد تدخله في ذاكرة التاريخ، هذه المرأة (دلهم) ربما ليس لديها غير هذه الكلمة أدخلتها في رحمة الله، وخلدت ذكرها في الدنيا، والسعادة في الآخرة.

---

(١) سورة الأنفال: ٤٢.

لماذا استبشر زهير؟

تقول الرواية (فما لبث أن جاء مستبشراً قد اسفر وجهه).

من أين جاء هذا الاستبشار؟ وكيف قلب حالة الوجوم والتردد إلى انفتاح وانشراح واقدام؟ الحقيقة إن روح الإيمان والنور الإلهي لما شعَّ على قلب زهير، أشرقت نفسه بانتصارها على حالة التردد التي كان يعيشها زهير، هي التي شرحت صدره بنور الإيمان وجعلته يفرح بما آتاه الله تعالى.

مواقف رسالية:

يقول الطبري: قال عقبة بن أبي العَيزار: قام حسين عليه السلام بذي حسم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أنه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وأن الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفها واسْتَمرّتْ جذاء فلم يبقَ منها إلا صبابة كصبابة الاناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله مُحقاً فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما.

قال: فقام زهير بن القين البجلي فقال لأصحابه تتكلمون أم أتكلم؟ قالوا: لا، بل تكلم، فحمد الله فأثنى عليه ثم قال: قد سَمِعت هداك الله يا بن رسول الله مقالتك، والله لو كانت الدنيا لنا باقية، وكنا فيها مخلدين، ألا أن فراقها في نصرك ومواساتك لآثرنا الخروج معك على الإقامة فيها، قال فدعا له الحسين ثم قال له خيراً»[1].

وفي ليلة عاشوراء حينما أذن الحسين لأصحابه بالانصراف وقال لهم: .

«هذا الليل قد غشيكم، فاتخذوه جَملاً، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد

---

(١) تاريخ الطبري م ٥ ص ٤٠٤.

رجل من أهل بيتي، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله، فإن القوم إنما يطلبوني، ولو قد أصابوني لهو عن طلب غيري..»[1].

جاء كلام زهير قاطعاً بالتصميم والمضاء والعزيمة التي لا تلين، والتي تنم عن روح ذائبة في حب الله ورسوله وأهل بيته. فيقول:

«والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل كذا ألف قتلة، وأن الله عز وجل يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك»[2].

ويقدم إلى ساحة الوغى. وهو يرتجز مخاطباً الإمام (ع).

أقـدم هُـديـتَ هـاديـاً مهـديـا
فـاليـوم تلقـى جـدك النبيـا
وحسنـاً والمـرتضـى عليـاً
وذا الجنـاحيـن الفتـى الكميـا
وأسـد الله الشهيـد الحيـا

---

(١) المصدر السابق: ص ٢٣١.
(٢) نفس المصدر ص ٢٢٩.

الحتميات الأربعة
أو
الثوابت الأساسية في الثورة الحسينية

عن أبي جعفر عليه السلام، قال: كتب الحسين بن علي (ع) من مكة إلى محمد بن علي:

بسم الله الرحمن الرَّحيم من الحسين بن علي إلى محمد بن علي ومن قبله من بني هاشم: أما بعد فإن من لحق بي استشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح والسلام[1].

هذا الكتاب يشتمل على حتميات أربع وهي أصول الثورة الحسينية ومن ثوابتها الأساسية التي منها انطلقت وبها تأصّلت جذورها في أعماق التاريخ.

هذه الحتميات هي:

الأولى: حتمية الشهادة.

وهي الثابتة الأولى من ثوابت هذه الثورة، والحسين (ع) منذ خروجه من المدينة إلى كربلاء لم يكن يتوقع غير الشهادة له ولمن معه، وحديثه

---

(١) بحار الأنوار م ٤٥ ص ٨٧.

مع الناس بصورة عامة، ومع أنصاره بصورة خاصة كان يؤكد الشهادة له ولأصحابه بصورة قطعية، وعلى الذين يخرجون معه أن يوطنوا أنفسهم عليها، ولذلك كان يكرر التصريح بها مرة بعد أخرى، لئلا تفاجئهم، ولئلاّ يحرجون ونحن نسمي هذا العنصر مفتاح الثورة الحسينية إنَّ الذين يلغون هذا العنصر وينفون هذه الحتميّة من الثورة الحسينيّة لا يبقون للثورة أية قيمة حضارية، ويفرغونها من محتواها الرسالي.

تصريحاته بالشهادة:

قبل أن يخرج من مكة قام (ع) خطيباً فقال: الحمد لله وما شاء الله ولا قوة إلا بالله وصلى الله على رسوله، خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا فيملأن مني أكراشاً جوفا، وأجريةً سغبا، لا محيص عن يوم خط بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذ عن رسول الله لحمته بل هي مجموعة له في حضيرة القدس تقرُ بهم عينه وينجز بهم وعده، ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته موطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإني راحل مصبحاً إنشاء الله تعالى»[١].

وحينما قال له ابن عباس وهو يحاول أن يثنيه عن الخروج، إن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك فإني لخائف أن تقتل وهم ينظرون إليك فقال الحسين (ع):

«والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي فإذا فعلوا سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من فرام المرأة»[٢].

---

(١) مقتل الحسين السيدالمقرم ص ١٦٦.

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٣٩. مقتل الحسين للمقرم ص ١٦٨، الغرام: خرقة =

الثانية: حتمية الفتح:

يقول (ع) «ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح» ومعنى ذلك من لحق به يدرك الفتح ويناله، والإمام (ع) يقرر هذه الحتمية كما قرر الحتمية الأولى، ويشير إلى أنه هو وأصحابه هم الفاتحون.

ونحن مع الاقرار بهذه الحتمية لا يمكننا أن نفهم الفتح كما يفهمه القادة العسكريون الذين يقررون أن الفتح هو التغلب من طرف على طرف، وانسحاب الطرف الآخر أو السيطرة عليه بقتله أو أسره أما ما يقصده الإمام الحسين (ع) من الفتح فهو مفهومه القرآني وهو يختلف بصورة كلية عن مفهومه العسكري.

النصر والفتح في الإسلام له مفهوم حضاري، فقد انتكس المسلمون في أحد، وتقدمت قريش، واحتلت مواقع المسلمين، وفر أكثر المقاتلين ولم يبق مع النبي (ص) إلا القليل القليل وبالرغم من ذلك عندما نزلت آيات الله تعالى على نبيه بعد المعركة لتحليل وتفسير الواقعة، تطرح المفاهيم الحضارية والرسالية وتصف المسلمين بأنهم (الأعلون) يقول تعالى ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾[1] فالقرآن الكريم يعتبر المسلمين هم (الأعلون) في الوقت الذي كانوا هم منهزمين عسكرياً فكيف يكونون هم الأعلون؟.

هذا، مع العلم أن القرآن الكريم لا يريد أن يرفع المعنويات، وإنما يريد أن يطرح مفهوم حضاري جديد، غريب على الأذهان وحري بنا أن نتأمل في هذا المفهوم الحضاري الجديد فنقول.

إن الطرف المنتصر هو الذي يستطيع في نهاية الجولة أن يكرس الغايات والمفاهيم التي دخل المعركة وصارع من أجلها، والطرف الخاسر

= تجعلها المرأة في قُبلها.

(١) سورة آل عمران: ١٣٩.

هو الذي لا ينحسر عن مواقعه العسكرية في نهاية الشوط فقط وإنما ينسحب عن مواقعه الحضارية والرسالية، وهذا معنى الهزيمة في الصراع الحضاري.

إذا فهمنا النصر بهذا المعنى، فالحسين هو الفاتح المنتصر ويزيد هو المهزوم والمغلوب في هذه المعركة فحقيقة المعركة بين الحسين والأمويّين لم تكن معركة عسكرية وذلك لأنها لو كانت عسكرية فعلى الحسين أن يعيد حساباته العسكرية بدقة وهو العارف بفنون الحرب والخائض للمعارك، وإلا فلا يعقل أن يدخل معركة حاسمة في اثنين وسبعين نفراً ليقابل جيش الامبراطورية الأموية ويريد أن يسقطها بهذا الجيش القليل العَدد والعُدة.

إن الصراع في ساحة الطف لم يكن بين رجلين ولا بين قوميتين، ولا بين جيشين وإنما بين عقيدتين وفكرتين ومبدئين، والأمويون يريدون أن يعيدوا الجاهلية بكل أبعادها، يحرفون الإسلام ويشوهون معالمه، ويزيلونه عن مواقعه، ويسلبونه نصاعته، والأخطر من ذلك أنهم يريدون أن يعيدوا الجاهلية باسم الإسلام.

أما الحسين فإنه يريد أن يكرس الإسلام الذي جاء به رسول الله، ويعيد له نقاءه ونصاعته وشفافيته وأصالته وعمقه وحصانته الفكرية والأخلاقية للمجتمع.

إذا فهمنا النصر والفتح وقررنا هذا المعنى وهو الحق، فالحسين هو الفاتح، ويزيد هو المهزوم المندحر، ولهذا نجد أن الحسين (ع) يتحدث بقوة ووضوح ويقين قاطع بأنه هو وأصحابه وأهل بيته الفاتحون ويزيد وجنوده هم المهزومون المندحرون. يقول سيد قطب في تعليقه على قوله تعالى ﴿إنا للنصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا. . .﴾[1].

«والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صورة معينة معهودة لهم

---

(١) سورة غافر: ٥١.

قريبة الرؤية لأعينهم، ولكن صور النصر شتى، وقد يتلبس بعضها بصورة الهزيمة عند النظرة القصيرة، إبراهيم (ع) وهو يُلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن دعوته إليها... أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شك - في منطق العقيدة - إنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار، كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار، هذه صورة وتلك صورة، والحسين - رضوان الله عليه - وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب، المفجعة من جانب أكانت هذه نصر أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة؟ فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كان نصراً، فما من شهيد في الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف، وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان الله عليه يستوي في هذا المتشيعون وغير المتشيعين من المسلمين وكثير من غير المسلمين.

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام كما نصرها باستشهاده وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه فتبقى حافزاً محركاً للأبناء والأحفاد وربما كان حافزاً لخطى التاريخ كله مدى الأجيال»[1].

قد يقال: ما هي الضمانات التي اعتمد عليها الحسين، حتى كرس الفتح لنفسه ولأصحابه ولأهل بيته ونفاه عن المتخلفين عنه...؟؟.

مما لا شك فيه أن الحسين عليه السلام وهو تلميذ مدرسة النبوة وحامل رسالة القرآن اعتمد الضمانات القرآنية أساساً لكل منطلقاته والقرآن الكريم في أية معركة وصراع حضاري يضمن لأولياء الله النصر على أعدائه في نهاية الشوط يقول تعالى:

---

(١) في ظلال القرآن م ، ص ١٨٩. طبعة بيروت.

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾[1].

﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾[2].

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[3].

﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾[4].

﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾[5].

هذه مجموعة من الضمانات القرآنية لتقرير هذه الحقيقة لذلك طرح القرآن هذه الحقيقة بصورة واضحة لا غموض فيها ولا تردد، والحسين (ع) انطلق يقرر حتيمة الفتح مستنداً إلى الضمانات الإلهية، وثورته وفقَ هذه الضمانات تستجمع كل شروط الفتح المبدئي الحضاري: إيمان، وجهاد، ومحنة، وابتلاء وتضحية، وفداء، وصبر، وثبات بتوجه خالص إلى الله تعالى ثم تتوج بالشهادة.

إذن هذه الحركة المباركة، والنهضة المعطاء لا تفتقد شرطاً من شروط النصر المبدئي والفتح الالهي، والله وعد عباده بالنصر وهو الذي قرره الحسين (ع).

ولهذه القضية وجه آخر ذو بعدين بعد حضاري عقائدي، وبعد عسكري، وفي كل صراع حضاري طرف فاتح منتصر وطرف مهزوم مندحر، أما في الصراع العسكري فيمكن أن يخرج الطرفان لا غالب ولا مغلوب.

---

(١) سورة غافر: ٥١.
(٢) سورة آل عمران: ١٦٠.
(٣) سورة محمد: ٧.
(٤) سورة الحج: ٤٠.
(٥) سورة المجادلة: ٢١.

الثالثة: العلاقة بين الشهادة والفتح:

نستطيع أن نستخرج العلاقة بينهما بطريقتين أما على طريقة الاصوليين: من منطوق الجملة الأولى ومفهوم الجملة الثانية، فمنطوق الجملة الأولى: من (لحق بي استشهد) فهو ينال الفتح بالشهادة ومفهوم الجملة الثانية أن الذي لا يلتحق بي فلا ينال الفتح.

إذا ربطنا بين منطوق الجملة الأولى ومفهوم الجملة الثانية وحذفنا المكرر على الطريقة المنطقية فتكون حصيلته أن الذين ينالون الشهادة هم الفاتحون، وأما الطريقة على الأدبية فمن سياق الجملة (من التحق بنا استشهد ومن تخلف لم يدرك الفتح) يكون المعنى من تخلف لم يستشهد ومن لم يستشهد لم يدرك الفتح، وهذه قضية من أغرب القضايا عسكرياً، ومن أوضح القضايا حضارياً.

فالنصر والفتح بمعناهما القرآني هو تثبيت وتحقيق الغايات الحضارية، ودم الشهيد هو الأداة الأقوى لتحقيق تلك الغايات، هذا الدم هو مفتاح الفتح فلا شيء يحرك ضمائر الناس ويزيل حجب الظلمة والجهل من عقول الناس وقلوبهم مثل دم الشهيد فهو يخترق حجب الخوف واليأس والضعف وحب الدنيا، وحب العافية من نفوس الناس، ويبعث فيها قوة وحيوية. إذن دم الشهيد هو مفتاح الفتح، لأن حقيقة الفتح في مفهومه القرآني، هو تمكين الحق من القلوب، وانشراحها على رسالة الله تعالى، ونحن انشاء الله نحاول أن نوضح هذه الحتمية، وهذا بحث جديد في تاريخ الفكر الحضاري الإنساني لم نعهده في تاريخ الأفكار الأخرى قبل الإسلام.

لكي نفهم الحقيقة الحسينية ينبغي أن نفتح البحث على مصراعيه فنقول:

الفتح الذي تحدث عنه الحسين (ع) مفهوم مقابل مفهوم الصد،

فالفتح أمام رسالة الله مقابل مفهوم الصد عن سبيل الله. فالمفهومان متقابلان والصد معناه حجز الناس وحجبهم عن سبيل الله وهو من أخطر مهام أئمة الكفر والطاغوت، فلكي يحكم الطاغوت قبضته في الناس لا بد وأن يصدهم عن سبيل الله لأنه يعلم أن الذين يسلكون سبيل الله تعالى لا يستطيع أن يتسلط عليهم ويستعبدهم، أما إذا أخرجهم عن صراط الله تعالى سهل عليه استعبادهم.

﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون﴾[1].

﴿فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون﴾[2].

﴿ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون﴾[3].

إذن مهمة الظالمين والكافرين بكل أشكالهم ودرجاتهم أن يصدوا عن سبيل الله، وما دام الناس على سبيل الله فالطاغوت ضعيف.

في مقابل الصد عن سبيل الله، يطرح القرآن الكريم مفهوم الفتح، ونحن لا نستطيع أن نفهم الفتح بمعزل عن الصد عن سبيل الله تعالى.

إذن الفتح هو إزالة الصادين عن سبيل الله وهي مهمة رسل الله وأنبيائه، والدعاة إليه؛ ازالة الصادين عن سبيل الله تعالى، الذين يضعون المعوقات، ويزرعون الألغام أمام الناس ليوقفوا حركتهم في السير والسلوك إلى الله تعالى، وازالة هذه المعوقات من الطريق هو الفتح وقد أشار القرآن الكريم إلى مفهوم الفتح في أكثر من موضع يقول تعالى.

---

(١) سورة آل عمران: ٩٩.
(٢) سورة الأعراف: ٤٤ ـ ٤٥.
(٣) سورة هود: ١٨ ـ ١٩.

﴿انا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾[1].

﴿فأنزل سكينته واثابهم فتحاً قريباً﴾[2].

﴿فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم﴾[3].

﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده﴾[4].

﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب﴾[5].

من هذه الآيات نستنتج نقطتين:

الأولى: إن النصر والفتح شيء من أمر الله تعالى منفصل عن الإنسان تماماً، وبتعبير آخر ليس الإنسان هو الذي يصنع الفتح، وإنما الذي يصنع الفتح ويمنح النصر هو الله تعالى كما أشارت الآيات الكريمة: ﴿انا فتحنا﴾ ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده﴾ ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾.

الثانية: إن مفتاح الفتح بيد الله تعالى، وصحيح أن الفتح من الله، ولكن الله تعالى جعل مفتاح الفتح والنصر بيده ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾ فمفتاح النصر: ﴿إن تنصروا﴾ فلسنا نحن الذين نصنع النصر وننتصر بأنفسنا وإنما الله الذي ينصرنا، فالنصر من الله، وهو الذي دلنا على مفاتح النصر وهي: الإيمان بالله ورسله، والجهاد في سبيله بالأموال والأنفس يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى

---

(١) سورة الفتح: ١.

(٢) سورة الفتح ١٨.

(٣) سورة النساء: ١٤١.

(٤) سورة المائدة: ٥٢.

(٥) سورة الصف: ١٣.

تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾[1].

العلاقة بين الجهاد والفتح:

قلنا أنَّ الجهاد من مفاتيح الفتح وهو بأيدينا، والعلاقة بين الجهاد والفتح ليست هي علاقة بين العمل ونتيجته وإنما هي العلاقة بين العمل والجزاء وهذا مفهوم قرآني طريق جداً، هناك نوعان من العلاقة يذكرها القرآن الكريم.

١ ـ العلاقة بين العمل ونتيجته كقوله تعالى ﴿واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾[2] فشيوع الفتنة علامة طبيعية ظاهرة لشيوع الانحراف عن سبيل الله تعالى، وبتعبير آخر إن الذين يعصون الله يشيعون الفتنة، فتشمل حتى الذين لم يعصوا الله تعالى، فهذه العلاقة إذن بين العمل وما يترتب عليه من نتائج.

٢ ـ وهناك علاقة بين العمل وآثاره. كما في قوله تعالى: ﴿فأنزل سكينته عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾[3] فانزال السكينة، وأثابة الفتح من الله تعالى جاءت كأثر من آثار الإيمان الخالص بالله تعالى.

وخلاصة القول: يتبيّن لنا أن النصر والفتح من صنع الله تعالى أولاً، وأن مفاتيح النصر جعلها الله بيد الإنسان وهي الإيمان والجهاد والصبر والشهادة والإنسان مسؤول عن الفتح والهزيمة ثانياً، وهناك علاقة بين العمل والجزاء وعلاقة بين العمل وآثاره ونتائجه.

والقرآن الكريم إنما يطرح هذه المفاهيم كي يؤكد لنا أن النصر والفتح بيد الله تعالى فهو الذي يعطي النصر ويمنح الفتح، وعلة هذا الطرح هي:

---

(١) صوة الصف ١٠ ـ ١٣.
(٢) سورة الأنفال: ٢٥.
(٣) سورة الفتح: ١٨.

١ ـ لئلا يصيب الناس اليأس في حالة الانتكاسة.

٢ ـ لئلا يصيبهم الزهو والغرور في حالة النصر والحسين (ع) قد قرر هذه الحقيقة بكلمة مختصرة دقيقة عميقة، فلم يقل لم تحصلوا على الفتح، وإنما قال (لم تدركوا الفتح) كأنَّ الفتح شيء منفصل عن الإنسان، وفي رواية أخرى (لم تبلغوا الفتح) فعلى الإنسان أن يتحرك نحو الفتح.

ثلاثة مسائل مترابطة:

لكي ندرك العلاقة بين الشهادة والفتح بشكل أدق وأوسع نطرح ثلاثة مسائل مترابطة وهي ١ ـ المنطلق ٢ ـ العوائق ٣ ـ الفتح.

أما المنطلق في حركة الإنسان إلى الله تعالى فهي الفطرة التي أودعها الله تعالى في عباده، وأودع فيها قوة الانجذاب إليه تعالى، وهي تختزن قدرات وامكانات هائلة تدفع الإنسان إلى الله تعالى، ومهمة الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى هي تنبيه الفطرة وايقاظها فقد يغفل الإنسان عن سر وجوده، وعلة إيجاده فهنا يأتي دور الأنبياء لينفضوا غبار الغفلة عن الفطرة ويبعثوها من تحت الركام.

وكُتب الله ورسالاته هي مذكرات للغافلين ولعل الذكر والتذكير الذي ورد في القرآن الكريم كثيراً، تقرير لهذا المعنى.

هناك فرق بين الذكر والعلم، فالعلم شيء جديد يضاف إلى وعي الإنسان وعقله، أما الذكر فليس بشيء جديد وإنما هو ايقاض، وتنبيه فالقرآن كتاب ذكر ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا﴾[١].

﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾[٢].

---

(١) سورة الأعراف: ٦٣.

(٢) سورة الأعراف: ٦٩.

﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى﴾[1].

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدَّكر﴾[2].

﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾[3].

فالأنبياء لا يعطون للناس شيء جديد وإنما يذكرونهم، يقول نوح عليه السلام: ﴿وإن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت﴾[4]..

إن أئمة الكفر والطاغوت يلعبون دوراً خطيراً في حياة الناس وهو محاولتهم وضع العراقيل وتلويث الفطرة، ومهمة الأنبياء الأخرى هي مهمة فتح الطريق الذي أغلقه الطاغوت، فإذا فتح الطريق ورفعت العراقيل ترى الناس يتدافعون في صراط الله، لأن الإنسان بفطرته ينجذب إلى الله تعالى يقول تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره أنه كان تواباً﴾[5].

فالنصر والفتح مهمتان أحدهما تترتب على الأخرى وكلاهما من صنع الله تعالى لا من صنع الإنسان ولا بد أن نشير إلى أن الفتح غير النصر، فالنصر هو أن يُغَلِّبَ الله أولياءه على أعدائه، وأما الفتح هو أن يذلَّ الله أعدائه، ويرفع نفوذهم وتأثيرهم، ويزيل العقبات التي زرعوها في الطريق، وبذلك يصبح السير إلى الله ميسراً على الناس وحينئذٍ يدخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً. ﴿إذا جاء نصر الله والفتح...﴾.

حين يفتح الله أبواب رحمته، ويزيل سلطان أئمة الكفر والطواغيت فإن الناس ينطلقون إلى الله أفواجاً لأن السدود قد رفعت من أمامهم ثم

---

(١) سورة طه: ٣.

(٢) سورة القمر: ٣٢.

(٣) سورة التكوير: ٢٧.

(٤) سورة يونس: ٧١.

(٥) سورة النصر١ ـ ٣.

تعود السورة مرة أخرى لتنبه الإنسان إلى الموقف النفسي والعملي الذي يجب عليه تجاه هذه الهبة الإلهية، حين يمنحنا الله النصر والفتح يجب علينا الحمد لله، والاستغفار مما وقع منا خلال مسيرة العمل من الهنات، والتقصير والضعف والجبن والتقاعس واليأس والغرور، والقرآن الكريم إنما ينبهنا على هذا لئلاّ تأخذنا نشوة الفتح وغرور النصر، وننسى نعم الله تعالى، فكثير من الناس عَبَروا عباب الصراع مع الكفر والباطل بسلام ولم يسقطوا في ساحة الصراع، ولكنهم سقطوا على ساحل النصر حين رزقهم الله إياه، نشوة النصر والفتح أنساهم ذكر الله تعالى.

العوائق:

العوائق التي يزرعها الطاغوت وأئمة الكفر في الطريق إلى الله تعالى على قسمين.

١ ـ عوائق موضوعية:

٢ ـ عوائق ذاتية:

﴿أما الأولى: فهي المؤسسات التي تخدم الطاغوت وتعمل على تحقيق أهدافه بدعمه ونصره والسير تحت رايته، فالمؤسسات الإعلامية والثقافية، والادراية والأمنية، هي التي تمكنه من إحكام قبضته على رقاب الناس، فالإذاعة الفاسدة، والأفلام الخليعة والصحافة المبتذلة، والمؤسسات الربوية.والأمنية وغيرها تشكل العوائق الموضوعية في طريق الناس إلى الله تعالى.

وأما الثانية: فهي الخصال السيئة، ومذام الأخلاق القائمة في نفس الإنسان كالجبن والخوف والجهل والترف والاسترخاء والتكبر والعجب وغيرها هذه الصفات تعيق الإنسان عن السير إلى الله تعالى.

بعد أن استعرضنا هذه المصطلحات الثلاثة: الانطلاق والصدود

والفتح نستطيع أن نربط بين الشهادة والفتح ونستخرج سر المعادلة بينهما كما أشار إليها الإمام الحسين (ع).

إن دم الشهيد يحمل رسالتين في الحياة:

رسالة الصدق ورسالة التضحية والعطاء فالذي يضحي بدمه في سبيل مبدئه لا يمكن أن نشك في صدقه واخلاصه، بعد أن ضحى بكل ما يملك ولا نعرف شيئاً يهز النفوس من أعماقها وينفض عنها غبار الغفلة، ورين الذنوب كدم الشهيد، ومهما استطعنا أن نُكَذِبَ أحداً فلا يمكننا أن نكذب الشهداء وهم يضحون بأنفسهم، إن دم الشهيد يعيد للإنسان وعيه وعقله وادراكه الصحيح ورشده، وبالتالي يحرره من القيود التي تثقل حركته وانطلاقه، ويسقط العوائق التي زرعها الطاغوت سواء في نفسه أو في الخارج. فإذن لدم الشهيد قيمة تحريكية عالية جداً في حياة الإنسان وهذه الحقيقة تكشف لنا المعنى الدقيق لكلمة الإمام الحسين (ع) وتبين العلاقة بين الشهادة والفتح..

الحتمية الرابعة:

الفتح الحسيني في عاشوراء لا يتكرر مرة أخرى.

عندما نتأمل في رسالة الإمام الحسين (ع) لأخيه محمد بن الحنفية ندرك أن هذا الفتح الذي حققه الله على يد الحسين لم يتكرر مرة أخرى ولتوضيح هذه الحقيقة نقول:

إن عملية الصدود عن سبيل الله التي تقدم الحديث عنها قد تحدث في مضيق من مضائق التاريخ، وقد يقوم بها الطاغوت في فُسحة من التاريخ، الصد الثاني لا يؤثر على حركة الإنسان إلى الله، مثلاً، هجوم التتر على المسلمين أضر بالإسلام كثيراً ولكن التتر هجموا بعد انتشار الإسلام وبعد أن أخذ مجالاً واسعاً في الأرض وسيطر على بقعة واسعة في المجتمع البشري ولذلك لم يستطيع الجيش المغولي رغم قوته عُدة وعدداً

أن يقضي على الإسلام، لأن هذا الصد تم في رحاب من أرحبة التاريخ الإسلامي، في مقابل هذه الصدود نوع آخر من الصدود يتم في مضيق من مضائق التاريخ ولأجل أن نعرف خطورة الصد عن سبيل الله في مضيق من مضائق التاريخ نضرب المثل التالي: لا يوجد قياس بين هجوم التتر على بغداد وبين هجوم قريش في معركة بدر، فقوام جيش الشرك القريشي لا يزيد على ألف مقاتل وبأسلحة بدائية بينما هجوم التتر كان عدد الجيش ضخماً وعدته متطورة جداً، ومع ذلك أن الصد الذي تم على يد قريش في بدر كان خطره على الإسلام أعظم من خطر الهجوم التتري على بغداد، والسبب أن الإسلام في وقت هجوم التتر كان يمر بفسحة من التاريخ. فبغداد سقطت، ولكن البقاع الأخرى كان فيها دعاة وعلماء وكتاب ومنابر ومساجد ومدن إسلامية واسعة في مختلف بقاع الأرض ولذلك أرغمت قوة الإسلام التتر على اعتناق الإسلام. أما قريش فلو استطاعت أن تقضي على الجيش الإسلامي في بدر لما بقي للإسلام عين ولا أثر لأن الإسلام كان يمر بمضيق حرج من مضائق التاريخ، فالفتح الذي رزقه الله تعالى للمسلمين في بدر لم يتكرر مرة أخرى، ولهذا فأصحاب بدر لا نظير لهم في التاريخ.

المضيق التاريخي الذي مر به المسلمون في بدر تكرر مرة أخرى في تاريخ الإسلام في يوم عاشوراء إلا أنه يختلف من حيث الصراع فذلك صراع على التنزيل وهذا صراع على التأويل، بين الفهم الصحيح للإسلام الذي كان الحسين ينهض به، وبين الفهم المنحرف والدعوة المنحرفة التي كان بنو أمية ينهضون بها وهم القوة الحاكمة، و السلطة الشرعية التي تمثل الإسلام، لذلك نقول مرَّ الإسلام في مضيَق من مضائق التاريخ في مرحلة الصراع على التأويل، والحسين (ع) نهض في هذا المضيق التاريخي، ولو لم تكن حركته وتضحيته التي أعادت الناس إلى وعيهم وضمائرهم، ولو لم يسلب الحسين الشرعية من الحكم الأموي لكانت الخلافة باسم خلافة

رسول الله، ولاستطاع التيار الأموي أن ينفّذ فهمه وادراكه وطريقته التي خطط لها ويمررها باسم الإسلام. وحينئذٍ تتغير جميع الموازين الفكرية والعقائدية والشرعية والأخلاقية، ويطرح الإسلام طرحاً محرّفاً ومشوهاً وذلك لأن يزيد ينطلق من منطلق الخلافة الشرعية لرسول الله (ص).
فجاءت ثورة الحسين فعصفت بكل ما بناه الأمويون طيلة نصف قرن من الزمن وأعادت الأمة إلى وعيها ورشدها ونهض الإسلام من جديد نقياً صافياً من جميع الشوائب الفكرية والأخلاقية والشرعية، ولذلك فتح الحسين الطريق للمسلمين على اختلاف مذاهبهم فجميع الأجيال الإسلامية عبر التاريخ مدينة لفتحين: فتح بدر، وفتح عاشوراء وهي مدينة كذلك لفرقانين الفرقان الأول يوم بدر فرّق بين الإسلام والكفر، والهدى و الضلال في مرحلة التنزيل، والفرقان الثاني يوم عاشوراء الذي فرّق بين الفهم السليم للإسلام، والفهم المعوج المنحرف الذي أريد تمريره باسم الإسلام، وأراد معاوية ويزيد أن يضربوا الإسلام باسم الإسلام، وباسم خلافة رسول الله، إلا أن نهضة الحسين والفتح الذي حققه الله على يده فوّت الفرصة عليهم وأبطل الخطة الأموية ونسفها من جذورها وتركها صاغرة في مزبلة التاريخ.

المحتويات

الموضوع .... الصفحة
الاهداء ٥
المقدمة ٧
١ ـ عاشوراء في وعي الجماهير ١٣
عناصر التفاعل الجماهيري مع ثورة الحسين ١٥
أسباب انشداد الناس لثورة الحسين ١٩
٢ ـ دور الأسوة في حياة الإنسان الرسالي ٢١
٣ ـ عاشوراء مرآة التاريخ كله ٢٦
الدور الانفعالي والدور الفعلي ليوم عاشوراء ٣١
كيف نفهم سنن الله تعالى ٣٣
٤ ـ كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء ٣٦
٥ ـ العناصر المكونة لحركة التاريخ ٤١
أ ـ الصيغة الفعلية والدور الانفعالي لعاشوراء ٤٣
ب ـ الأحداث التي سبقتها أو ستسبقها اشارات ٤٣
ج ـ النظرية الإسلامية في فهم التاريخ ٤٦
د ـ أسس حركة التاريخ ٤٩
١ ـ قانون العليّة ٤٩
٢ ـ ارادة الانسان ٥٣
٣ ـ التدبير الإلهي ٥٧
أ ـ مرحلة الخلق والتقدير ٥٧

ب ـ مرحلة التدبير ٥٧
هـ ـ نماذج من التدبير الإلهي ٥٨
٦ ـ مسؤولية الحسين (ع) في مواجهة الردة الحضارية ٥٩
٧ ـ التحول الخطير الذي حدث في الأمة في عصر الحسين ٦٧
٨ ـ الحسين أنقذ من قبله وصنع من بعده ٧١
٩ ـ حتمية الصراع بين الحق والباطل ٧٦
محاور الصراع ٧٦
المحور الأول: ما هو الصراع ٧٦
المحور الثاني أهداف الصراع ٧٨
المحور الثالث طرفا الصراع ٨٠
المحور الرابع نتيجة الصراع ٨١
١٠ ـ محاولات الصراع ٨٢
المثل الأول ٨٢
المثل الثاني ٨٣
كيف تفجّر منابع الخير في النفوس ٨٥
١١ ـ الفرقان ٩٠
فرقان الآخرة ٩١
لمذا هذا الفرقان بينهما ٩٤
الفرقان في المجتمع ٩٦
الفرقان بين الرؤى والتصورات ١٠٠
١٢ ـ أصناف الناس في يوم عاشوراء ١٠٤
أنواع التصنيف ١٠٦
ثورة الحسين صراع بين الولاء لله وبين الولاء للطاغوت ١٠٩
١٣ ـ الناس عبيد الدنيا ١١٣
لماذا الفرقان والفصل ١١٧
١٤ ـ ظاهرة الاستنصار والاستقامة في ثورة الحسين ١١٩

ثلاث مفردات ١٢٠
الموارد التي استنصر فيها الحسين ١٢٦
معاني وأبعاد الاستنصار الحسيني ١٢٧
المعنى الشمولي للاستنصار ١٣٢
نظرة إلى مضامين الاستنصار ١٣٣
١٥ ـ نموذجان من المتخلفين عن الحسين ١٣٥
الضحاك بين عبدالله المشرقي ١٣٧
عبدالله بن الزبير ١٤٩
أسباب تخلف بن الزبير ١٥٢
طريقة عمل الأنا ١٥٤
١٦ ـ ظاهرة الانقلاب في يوم عاشوراء ١٥٦
في كربلاء برزت ظاهرتان.................. ١٥٧
الانقلابات العكسية ١٥٩
كيف نفهم الانقلاب ١٦٠
خصائص الولاء ١٦١
انقلاب الحر بن يزيد الرياحي ١٦٢
انقلاب زهير بن القين ١٦٥
تحليل الموقف ١٦٧
لماذا استبشر زهير ١٧١
مواقف رسالية ١٧
٧ ـ الحتميات الأربعة أو الثوابت الأساسية في الثورة الحسينية ١٧٣
حتمية الشهادة ١٧٣
تصريحاته بالشهادة ١٧٤
حتمية الفتح ١٧٥
العلاقة بين الشهادة والفتح ١٧٩
العلاقة بين الجهاد والفتح ١٨٢

ثلاثة مسائل مترابطة ١٨٣
١ ـ المنطلق ١٨٣
٢ ـ العوائق: موضوعية. وذاتية ١٨٥
٣ ـ الحتمية الرابعة الفتح الحسيني ١٨٦
ما حدث في عاشوراء لايتكرر ١٨٦
المحتويات ١٨٩



